

# مع العرب

هزيمة

لويس التاسع

على ضفاف النيل

تأليف

الدكتور جوزيف نعيم يوسف

مؤسسة المطبوعات الحديثة

رفع  
مكتبة تاريخ وأثار دولة المماليك

مع العرب

هـ

هزيمة

لويس التاسع

على ضفاف النيل

تأليف

الدكتور جوزيف نعيم يوسف



تصدرها

مؤسسة المطبوعات الحديثة

جميع الحقوق محفوظة  
للمؤسسة المطبوعات الحديثة

## مقدمة

استهدفت مصر في منتصف القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، لعدوان صليبي آثم بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا، منى فيه الصليبيون بضربة شديدة وهزيمة منكرة .

وتعتبر هذه الحملة من الفصول الهامة في تاريخ الحركة الصليبية التي قام بها أهل الغرب الأوروبي بقصد الاستيلاء على مصر والشام، وتأسيس مملكة لهم بها ، تكون نقطة ارتكاز يتوسعون منها على حساب البلاد العربية المجاورة . وكان الغرب مدفوعاً بعوامل شتى ، أهمها حب التوسع والسيطرة والاستعمار والعداوة التقليدية للغرب والإسلام . ولا تغفل إذا قلنا إن دول الغرب اتخذت من الدين ستاراً رقيقاً لإخفاء أطماعها التوسعية ونياتها السيئة في منطقة الشرق العربي .

ولكن مصر التي حملت لواء الزعامة في العالم الإسلامي في ذاك الحين ، والتي اعتبرت مركز إمداده ومعقله المنيع ، هي التي تصدت لقتال الصليبيين المعتدين ، ودونت بمجاهداها الصادق ضدهم في حملة لويس التاسع وفيما سبقها وما لحقها من حملات ، صفحة مجيدة خالدة في تاريخها وفي تاريخ الأمة العربية جمعاء . وبذلك استطاعت أن ترد الغزاة على أعقابهم يمحرون وراهم أذيال الحية والحدلان والعار ، فأنفذت بلاد الشرق العربي من خطر الغزو الأوروبي الوسيط .

والخلة التي نحن بصدها مستمدة من التاريخ نفسه ، لادخل للخيال فيها ، تركت أبطالها يقومون بأدوارهم كما أدوها على مسرح الحياة وقتذاك ، وتركوا وقائعها وأحداثها تنساب كما قدر لها أن تكون . تركت حوادثها وأبطالها يكشفون لنا عن ألوان رائعة من البطولة والكفاح ، ونماذج حية من التضحية والاستشهاد في سبيل الوطن وحريته ، وآيات بينات من التضامن العربي الحق ، وصور قاتمة من أحقاد المستعمرين وأطباعهم .

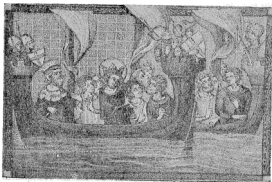
وقد تطلبت منا كتابة هذا الموضوع الرجوع إلى تأليف المعاصرين للحملة من العرب والفرنسيين ، وبعضهم كانوا شهود عيان لوقائعها مما يجعل لرواياتهم أهمية خاصة ، وإلى حوليات ومراجع ، لا يزال الجانب الأكبر مما كتب منها باللغة العربية مخطوطاً ، وما كتب باللغات الأوربية فغظمه لا يزال بلهجة الأصلية التي دون بها .

ولعلني أكون قد استطعت بما بذلت من جهد متواضع في هذا البحث أن أسد شيئاً من النقص في دراسة هذه المرحلة الهامة من تاريخ الاستعمار الأجنبي في الشرق العربي ، ومن تاريخ جهاد مصر ضد لويس التاسع والفرنسيين ، لتكون عبرة لمن لا يعتبر ..

المؤلف

## جيوش العدوان تبحر من فرنسا

منذ حوالى سبعمائة عام ، وعلى وجه التحديد فى الخامس والعشرين من أغسطس سنة ١٢٤٨ ميلادية جمادى الأولى سنة ٦٤٦ هجرية ، أبحر ملك من أشهر ملوك أوروبا فى ذلك الحين ، وهو لويس التاسع ملك فرنسا ، على رأس جيش ضخم من الفرسان والمشاة متجهاً شطر مصر بقصد الاستيلاء عليها .. لقد ملأه الغرور والزهو والخيلاء ، وخيل إليه أنه سيجد البلاد غنيمة باردة أو لقمة سهلة .. كانت تراوده الآمال العراض ، ولم يكن يخطر بباله ما تخبئه له الأقدار ..



جيوش العدوان تبحر من فرنسا قاصدة مصر

وقد اصطحب لويس معه في رحلته المشؤمة جانباً كبيراً من الصليبيين وعلى رأسهم أخواه شارل كونت أنجو وروبرت كونت أرتوا ، وكذلك زوجته الملكة مارجريت دى بروفانس التي أبت إلا أن تشارك زوجها في مصائبه .. أما شقيقه الثالث المدعو ألفونس كونت بواتييه فقد بقي في فرنسا بعض الوقت لجمع نجذات وإمدادات أخرى على أن يلحق بالجيش الفرنسي فيما بعد ..

ويبدو أن لويس قد أحس سلفاً بالإثم الذي سيقترفه في حق هذه البلاد الآمنة ، فأقضى باعترافه قبل رحيله بين يدي بابا أوروبا حاصلاً منه على صك الغفران على خطاياهم .. وباله من ثمن رخيص يدفعه مقدماً ملك عرف هو وشعبه بعدائهم وكراهيتهم للعرب والإسلام !

خرجت الحملة من ميناء مرسيليا بفرنسا في عدد كبير من السفن التي أسندت قيادتها إلى الجنوية لعدم خبرة الفرنسيين بشئون الملاحة .. وفي السابع عشر من سبتمبر أرست في جزيرة قبرص التي اعتسبرت ملتقى الجيوش المعتدية الوافدة إلى الشرق . وكانت الجزيرة وقتذاك تحت الحكم الفرنسي ، فكانت من ثم دولة صديقة لهم .. وقد شاهد الفرنسيون عند وصولهم تلالاً من الغلال والحنطة والحبوب وبراميل التينيد مكدسة في الحقل على ساحل الجزيرة ، وهي التي كانوا قد أرسلوها قبل سفرهم لتموين قواتهم عند معاركهم المقبلة مع المصريين ..

شعر الفرنسيون بأنهم في ديارهم ، وبأنهم ليسوا غرباء في هذه الجزيرة ، وامتدت إقامتهم هناك زهاء ثمانية أشهر قبل تحركهم صوب الديار المصرية ، في انتظار وصول بقية الجيش .. وكان الله قد أراد لهم هذا



التأخير الطويل الذي عاد عليهم بكثير من الخسارة والأضرار . . إذ  
نفدت مؤنهم وأموالهم ، وانغمسوا كمعادتهم في اللهو والفسق نتيجة  
الفراغ ، مما أضعف قواهم وأنهمكها ، فاختل نظامهم وانتشرت الأمراض  
والأوبئة بين صفوفهم . .  
وكانت هذه بداية غير موفقة . .

## مصر تستعد للملاقاة المعتدين

كان ذلك يتصل بالمعسكر الفرنسي في قبرص .. أما في مصر التي هيا لها جهادها الصادق ضد الصليبيين مكان الصدارة في العالم الإسلامي ، فقد كان مجلس على عرشها آنذاك ملك من أعظم خلفاء صلاح الدين هو الصالح نجم الدين أيوب .. كان سياسياً حنكاً ، يقابل المصائب بحنان ثابت وحيلة واسعة . وكان لما يتمتع به من قوة الشخصية ، وحسن السياسة ، وشدة المراس ، الفضل في أن تهيأ للبلاد خلال حكمه فترة من الهدوء والاستقرار الداخلي ، مما كان له أكبر الأثر في التغلب على الفرنج الدخلاء .

وما إن تواترت الأنباء بخروج الفرنسيين في جموعهم العظيمة من فرنسا يتأهبون لقصد مصر ، حتى أسرع الصالح أيوب يعد العدة للملاقاتهم ودفع شرمهم .. وقد وجد في صديقه القديم فردريك الثاني إمبراطور ألمانيا الذي نشأ في صقلية ، ملثقي مختلف الأجناس والأديان ، خير معوان له على تقصى أسرار الحملة ، وكانت العلاقات بينهما قائمة على انود وحسن التفاهم .. إذ أرسل فردريك أحد رجاله متخفياً في زى تاجر إلى الصالح ، وكان مقيماً في الشام حينذاك ، ليحذره من لويس التاسع ، ويخبره أنه اعترم السير بحقاله الجرامة إلى أرض مصر لامتلاكها .. وبلغ من حقد بني عشرينه عليه لتساعه وصراحته ، أن اعتبره مسيحيو أوروبا أنه أقرب إلى الإسلام منه إلى النصرانية ، وأنه كان يؤثر القرآن على الإنجيل ! كما اتهمته الكنيسة الرومانية الكاثوليكية بالهرطقة واعتبرته

خارجاً عن تعاليمها ، لا لشيء إلا لوجهة النظر المتساعثة التي تشجع بها وعمل على تحقيقها كلها وجد إلى ذلك سبيلاً .. ليغفر الله لهم ذلاتهم في عصر امتازت فيه أوروبا بالتعصب الأعى في هذه الناحية ..

تسربت إذن أخبار الحملة وخططها إلى المصريين .. وما إن علم السلطان بحركة الفرنسيين حتى عاد مسرعاً من الشام إلى مصر ، ونزل بأشموم طناس في يوم الثلاثاء الثامن عشر من مايو سنة ١٢٤٩ صفر سنة ٦٤٧ هجرية ليكون في مقابلتهم إذا وصلوا إلى دمياط التي كان يتوقع هجومهم عليها .. وأشموم طناس هذه هي إحدى المدن المصرية القديمة تقع على الشاطئ الشرقي للبحر الصغير الذي كان يسمى وقتذاك بحر أشموم نسبة إلى هذه المدينة وكان يطلق عليها أيضاً أشموم الرمان . وهي اليوم قرية عادية من قرى مركز دكرنس بمديرية الدقهلية ..

لم يضيع الصالح وقتاً ، بل أخذ في الاستعداد لمواجهة العدو وإعداد الجيوش للدفاع عن البلاد .. وعمل على تحصين مدينة دمياط لعلمه أنها كانت هدف الصليبيين في حملاتهم السابقة على مصر .. فلم ينس ماجرى عليها أيام أبيه الملك الكامل محمد قبل ذلك التاريخ بثلاثين سنة .. فأسرع بتزويدها بما يلزمها من المؤن والذخيرة ومن آلات الحرب والقتال .. ثم عهد إلى طائفة بني كنانة ، وهم جماعة من العرب اشتهروا بالشجاعة والإقدام ، بحمايتها من الداخل والدفاع عنها ضد غائلة المعتدين .

ولم يكتف السلطان بذلك ، بل أصدر أمره من أشموم طناس إلى ابنه في القاهرة الأمير حسام الدين بن أبي علي بإعداد قطع الأسطول من صناعة مصر وشحنها بالعدد والرجال ؛ إذ لم يكن يخفى عليه أهمية القوة

البحرية المصرية في دفع أية إغارة على مصر تأتيها من وراء البحار ، حيث تمتد شواطئها مسافة أميال طويلة في البحر المتوسط . . فشرع الحسام بتجهيز السفن وإرسالها تباعاً إلى دمياط . . ثم أوفد السلطان الأمير عمر الدين يوسف بن الشيخ قائم الجيش على رأس قوة إلى البر الغربي لدمياط ، حتى يكون في مقابلة الفرنج عند وصولهم إلى الشاطئ المصري ، ليحول بينهم وبين النزول إلى أرض مصر .

## الفرنسيون في دمياط

الاستعدادات قائمة على قدم وساق .. فسلطان مصر يعد العدة للملاقاة  
الاعداء ودفعهم عن البلاد .. بينما يتأهب لويس التاسع وجيشه للرحيل  
من جزيرة قبرص صوب الشاطئ المصري آمليين احتلال البلاد .. وما  
كانوا يدرون أنها ستكون مقبرة لهم ، وصخرة تحطم أمامها عزتهم  
وكبرياؤهم ..

وفي يوم الخميس الثالث عشر من مايو ١٢٤٩ م — صفر ٦٤٧ هـ أفلح  
لويس ورجاله من قبرص ميممين شطر مصر في أسطول كبير يبلغ عدد  
وحداته نحو ألف وثمانمائة قطعة ، تحمل نحو خمسين ألف مقاتل من مشاة  
وفرسان ، بكامل معداتهم وسلاحهم ومؤنهم وخيولهم .. وبلغ من كثرة  
السفن أنها كست البحر حتى أنه لم يعد يرى سوى الساريات وهي تعلو  
وتهبط فوق سطح الماء ..

بدأت الرحلة في جو ممتع بديع لا يعكر صفوه شيء .. ولا عجب فالوقت  
كان ربيعاً .. السماء صافية ، والشمس ساطعة تلتق بأشعتها الذهبية على  
صفحة الماء فتكسبها لمعاناً غريباً .. وكأن هدوء البحر قد أغرى لويس  
ومن معه ، فكشف عن خيئته نفوسهم وحقيقة نواياهم ..

بدأ لويس كلامه قائلاً :

— إن العهد جد قريب بما أنزله جيش المصريين ياخواننا الفرنج

من هزائم أمام غزة ، واستيلائه على بيت المقدس .. وكان ذلك في عام ١٢٤٤ .. لقد ضاعت هذه المدينة من أيدينا ، وأخشى ألا تتمكن من استردادها .. ولم يكف المصريون بذلك ، بل أخذوا يغيرون على ممتلكاتنا ، فاستولوا على طبرية وعسقلان بعد ذلك التاريخ بثلاث سنوات .. وهكذا أصبحت باقي معاقلنا في الشرق معرضة للخطر والضياع ..

ويستطرد ملك الفرنسيين قائلاً ، وقد لمعت عيناه بهيق الحبث والدهاء :

— سيكون النصر حليفنا هذه المرة .. وستقع دمياط في أيدينا .. فهي مفتاح مصر ، وطريق تجارى هام بين الشرق والغرب .. ويمكن منها تحقيق أطامنا ، وتنفيذ مآربنا وظاياتنا ، وبسط نفوذنا على وادى النيل وسائر بلاد الشام .. وحيثك يقضى لنا استغلال خيراتها ومواردها وأرزاقها ..

ورد عليه شقيقه شارل كونت أنجو الذى عرف بأطامه ، وكان يجلس إلى جانبه على ظهر السفينة الملكية :

— نعم .. هذا هو حلنا القديم الذى أخفق أسلافنا في تحقيقه .. سوف نحققه نحن اليوم .. ستؤسس لنا في هذه الديار مستعمرة تدر علينا المال الكثير والربح الوفير الذى سيوصل إلى خزانتنا عن طريق التجارة وإرهاق كاهل الشعب بالضرائب ..

— لماذا نستبق الأحداث يا سادة .. ونحكم على خواتم الأمور

والحلمة لم تبدأ بعد ١٩ لتدع الأمور تسير في طريقها ، وليكن بعد ذلك ما يكون ..

كان هذا هو تعقيب ألفونس كونت بواتيه ..

كان القدر يخفي لهم الشيء الكثير .. إذ لجأة اكفر الجو ، وانهرت السيول ، وهاج البحر وارتفعت أمواجه كالجبال ، وهبت رياح عاصفة عاتية شتتت شمل السفن المعادية ، ودفعت جانباً منها بعيداً صوب عكا وسواحل الشام ، ولم تتمكن من اللحاق بالملك إلا بعد وقت طويل ..

كان غضب الطبيعة نذيراً بما سيحل بأولئك القوم من محن وأوصاب . ولما سكنت العاصفة تابعت الحملة رحلتها .. وقبيل فجر يوم الجمعة الرابع من يونيو وصلت إلى الفرع الشرق للنيل ، وأرست بالبر الغربي لدمياط . وكان يعرف في ذلك الوقت باسم بحيرة دمياط أو الجزيرة ؛ لأن مياه البحر الأبيض تحيط به شمالاً ومياه النيل تحيط به شرقاً ..

أما دمياط التي كانت مسرحاً لعدوان الصليبيين ، فكانت تقع على الجانب الايمن للفرع الشرق للنيل عند اتصاله بالبحر . وهي إحدى المدن المصرية العريقة في القدم التي يرجع تأسيسها إلى ما قبل الفتح العربي . ولقد قاومت كثيراً من اعتداءات الفرنجة المتكررة عليها ، حتى أدى ذلك في النهاية ، وبعد عدوان لويس التاسع على وجه الاخص ، إلى اتفاق الممالك البحرية على تخريبها ودك أسوارها وحصونها ، وبناء دمياط الجديدة إلى الداخل بعيداً عن شاطئ البحر ، حتى تخلص البلاد من شر اعتداء الغزاة عليها وطعمهم فيها ..

وكانت مدينة حصينة غاية الحصانة ، تحيط بها الأسوار والأبراج والقلاع من كل جانب . . كما كان عند مدخلها برج ضخم حشد فيه المقاتلون . . وكانت السلاسل الحديدية المتينة تمتد منه إلى برج مقابل على الشاطئ الآخر لمنع سفن العدو من العبور في النيل والوصول إلى المدينة .

• • •

وعندما وصلت مراكب العدو وفيها جموعهم الغفيرة تجاه البر الغربي لدمياط ورسى في مواجهة القوات المصرية ، أرسل مليكهم من قبله رسولاً إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ومعه رسالة يهدده فيها بالويل إن لم يستسلم له ويذعن لمطالبه . .

فرض الصالح الرسالة وإذا برائحة الغدر تفوح منها . . وأخذ يقرأ في عجب ودهشة واستخفاف :

« . . إنا نقتل العباد ، وندوس البلاد ، ونظهر الأرض من الفساد . . فإن قابلتنا بالقتال فقد أوجبت على نفسك ورعيتك النكال ، ورميتهم في أسر الوبال ، ويكثر فيهم العويل ، ولا ترجم عزيز ولا ذليل ، ولا تجدد إلى نصرتهم من سيل . ونحن شرحنا لك ما فيه الكفاية ، وبذلنا لك غاية النصيحة والهداية ، أن تنقل إلى عندنا ما عندك من الرهبان ، وتحلف لنا بعتائهم الإيمان أن تكون لنا نائباً على مر الأزمان ، وتقبل لنا بما عندك من مراكب وطرائد وشوان ، ولا يكون فيك فتور ولا توان ، لتكون قلوبنا راضية عليك . . ولا نسوق حثفك إليك ، وتكون على نفسك وجيشك قد جنيت ، وتعود تقول يا ليت . . »



استشاط السلطان غضباً ، وقرر أن يكيل للملك الفرنسى المغرور  
الصاع صاعين . فاستدعى كاتب الإنشاء بالديار المصرية بهاء الدين زهير  
— وهو شاعر مصرى رقيق — وأمره بإرسال رد يليق بملك مافون  
يعيد إليه رشده وصوابه . .

وعاد الرسول إلى سيده يحمل إليه رسالة السلطان . . ويبد مرتعشة  
تناول لويس الرسالة وأخذ في تلاوتها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه  
أجمعين ، والحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على القوم  
الظالمين ، من عندنا نأخذ عن حرم المسلمين ، والقارى كتاب رب العالمين  
المزول على خير المرسلين ، محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله الطاهرين ،  
وأصحابه الأنصار والمهاجرين ، صلاة دائمة إلى يوم الدين . . أما بعد ،  
فقد وصل كتابك ، وفهمنا لفظك وخطابك . . وها أنا قد أتيتك بالخيال  
والرجال ، والخزائن والأموال ، والعساكر والأثقال ، والقيود  
والأغلال ، فإن كانت لك ، فأنت الساعى وقد أمنت الناعى . . وإن  
كانت عليك ، فأنت الباغى لختفك ، والجادع أنفك بظلمك . . فإن رأيت  
الأهيم بين القسطين ضعفاً ، فذلك من الله علينا وعليكم متناً . . وإن غير ذلك ،  
فقد قال الله تعالى : « أفن زَيْنَ له سُوءَ عَمَلِهِ فَرَأَهُ حسناً . . ولما  
وصل إلينا كتابك أعطيناك جوابك ، ومن يهده الله فهو المهتدى ، ومن  
يضل فلن يجد له هُولياً مرشداً . . وفي كتابك تهددنا بجيوشك وأبطالك  
وخيلك ورجالك ! ألا تعلم أننا نحن أرباب الختوف وفضلات السيوف ،  
ما نزلنا على حصن إلا هدمناه ، ولا عدم منا فارس إلا جددناه ، ولا طغى

علينا طاع إلا دمرناه .. فلو نظرت أيها المغرور حد قلوبنا ، وجد حروبنا ، رأيت فرساناً أسنهم لاتمل ، وسيوفهم لاتكل ، وقلوبهم لاتذل ولعضضت يدك بسن الندم ، ولاخرت تحريك قدم عن قدم . فلا تعجبك العساكر التي بين يديك ، فهو يوم أوله لنا وآخره عليك ..

واستمر يقرأ ويقرأ وقد أحس الأرض تيمد تحت قدميه ، ثم تلا :  
« إذا أتاك كناني هذا فلتكن منه بالمرصاد على أول سورة النحل وآخر سورة ( ص ) : « أتى أمر الله فلا تستعجلوه » ، و « لتعلن نبأه بعد حين » . هنالك تتناول نحوك الأعناق ، وتشخص صوبك العيون ، ويشوبك الويل ، وتسوء بك الظنون ، « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » ، ونعود إلى قول الله تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين » ، والسلام .  
كلمات من نار يعلن فيها سلطان مصر تحديه للفرنسيين وملكهم ، واستخفافه بهم ، واستهانته بكثرة جموعهم ، واستعداده لنزالهم وتأديبهم ، إذا ماسولت لهم نفوسهم القيام بأى عمل عدائى . كلمات من نار أخذت تطن فى أذن لويس ، ولاشك أنه أخذ يسترجعها عندما وقع أسيراً ذليلاً كبيراً فى قبضة المصريين .. ولكنها الأطعام .. أطعام الاستعمار التى تعميه عن كل شئ ..

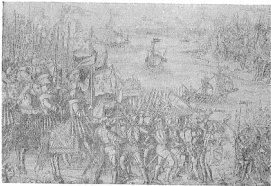
• • •

أسرع الملك الفرنسى بالاجتماع بكبار رجاله فى سفينه للتداول معهم فيما يجب عمله .. واستقر رأيهم على النزول إلى بر دمياط فى يوم السبت ، وهو اليوم التالى لوصولهم ..

أما قوات المصريين بقيادة الأمير نجر الدين فكانت مرابطة على الشاطئ متأهبّة للقتال ..

وكان منظراً مثيراً حقاً .. منظر هذه القوات التي تتألف من رجال أشداء مستعدين للقتال ، وإلى جانبهم قائدهم ذو الدرع الذهبي الذي يتألق في الشمس حين شروقها ، وقد علت أصوات أبواقهم وقرع طبولهم حتى ملأت المكان وحشة ورهبة .

وفي صبيحة يوم السبت الخامس من يونيو ، شرع الفرنسيون في النزول إلى البر ، وقد وجدوا صعوبة كبيرة في عملية النزول لأن مياه الشاطئ كانت ضحلة غير عميقة .. فتركوا سفنهم الضخمة في عرض البحر ، وانتقلوا إلى البر في قواربهم الصغيرة حيث ألغوا بأنفسهم في الماء وعلى



الفرنسيون ينزلون بدمياط

وأمرهم لويس نفسه ، بينما ظلت الملكة مارجريت على ظهر السفينة الملكية تراقب القتال عن بعد ..

بدأ الصدام بين الفريقين ، واستماتت قوات المصريين في الدفاع عن الشاطئ .. بينما بذل فرسانهم قصارى جهدهم لمنع الأعداء من النزول ، وأخذوا يرمونهم بالدهام والرماح التي فتكت بعدد منهم .. ومع ذلك تمكن الفرنسيون من النزول إلى البر بسبب كثرتهم العددية ..

وما إن نزل الملك الفرنسي حتى نصبت له خيمة حمراء في لون الدماء المراقبة .. كذلك ضرب باقي الصليبيين خيامهم استعداداً لل معركة الثانية . وسرعان ما بدأ القتال الذي استمر من الصباح الباكر حتى وقت الظهيرة ، وانتهى بكسب مؤقت أحرزه الفرنج في ذاك اليوم ..

وكان من استشهد من المصريين الأمير نجم الدين بن شيخ الإسلام ، والأمير صارم الدين أربك الوزيرى ، من أخصاء الملك الصالح أيوب .. استشهدا بعد أن أبليا في قتال أعداء الله خير بلا ..



كان الصالح أيوب في تلك الأثناء مريضاً ومقيماً بأشوم طنح ، وقد اشتدت به العلة حتى أشرف على الموت .. وكان الأطباء يأتونه كل يوم وقد يئسوا من شفائه ، ولكنه لم يشمر بذلك .. فلما وقع ما وقع ، أطلق الأمير غفر الدين الحمام الزاجل يحمل النبأ إلى السلطان ، وتعددت رسائله إليه دون أن يتلقى رداً ، فاعتقد أنه قد مات ..

فلما جن الليل ، وكان الصليبيون قد تمكنوا من البر الغربي للمدينة ،

رحل القائد المصري ومن معه من القوات من الشاطئ الغربي، وقطع بهم الجسر إلى الجانب الشرقى الذى فيه دمياط .. ثم واصل السير متجهاً جنوباً إلى معسكر السلطان عند أشموم طناس، استعداداً لملاقاة الغزاة وصددهم عند تقدمهم داخل البلاد .. ولكن الجند نسوا فى عجلتهم أن يحطموا الجسر الذى كان يصل بين الشاطئين الشرقى والغربى؛ فانقض الفرنسيون عليه واحتلوه وانفتح أمامهم الطريق إلى المدينة .. ولكنه كان فى نفس الوقت الطريق إلى الاندحار والهزيمة ..

وكان بالمدينة أيضاً بنو كنانة من العربان، وهم جنود الحامية الذين أنزلهم بها الصالح أيوب للدفاع عنها ضد المعتدين، فتملكهم الرعب وتركوها لى يلحقوا بباقي الجند .

لم يبق بدمياط بعد تراجع الجند والكنانية غير أهلها .. وعندما شاهد الدمايطية ذلك قرروا أن يقوموا بعمل إيجابى سريع يردون به على الجيش المغير .. وكان هذا العمل هو تخريب المدينة وتركها قاعاً صافصفاً بعد أن أدركوا أنها واقعة لا محالة فى أيدي الأعداء .. وفى الحال أشعلوا النيران فى دار السلاح وكانت تسمى الزرد خاناه ، وفى سوق المدينة ومخازنها حيث تكسدت البضائع والحاجات ، وكذلك فى بعض الدور الكبرى حتى لا تقع بما فيها من الخيرات والمؤن والعتاد غنيمة فى أيدي الفرنج ..

كان هذا بداية الطريق .. وقد أدرك الشعب أنه طريق طويل شاق .. طريق مليء بالعقبات والصعاب .. طريق الكفاح فى سبيل الحرية .. وليس أعذب إلى نفسه من الكفاح فى سبيلها .. أدرك

شعب مصر الخالد الذى آمن بحقه فى الحياة الحرة الكريمة أن الجهاد فرض عليه حتى تخلص البلاد من شر المعتدين وتعود سالمة إلى أبنائها .

وبعد أن أشعل أهل دمياط النيران فى مدينتهم ، انطلقوا يهيمون على وجوههم طوال الليل ، ولحقوا بالجند فى أشموم طناس .. ثم واصلوا المسير إلى القاهرة وهم فى حالة يرثى لها من التعب والإعياء .

ولما أصبح الفرج يوم الأحد السادس من يونيو سنة ١٢٤٩ م — ربيع الأول سنة ٦٤٧ هـ ، وكان يوماً مكفهاً معتمداً على غير المؤلف فى مثل هذا الوقت من العام ، قصدوا دمياط فوجدوها كومة من التراب وقد ارتفعت ألسنة اللهب عالياً فى سمائها . : وجدوها خالية خاوية على عروشها تستمطر اللعنات عليهم .

وبينا كان السلطان يعانى الأمرين من وطأة المرض وهو بين الحياة والموت ، وافته هناك القوات المصرية ورجال الحامية . . لكنه لم يستسلم للمرض ، ولم يتطرق اليأس إلى نفسه . . وأراد تأديب بنى كنانة لمخادرتهم دمياط دون أمر منه ، فأمر بشتق عدد من أمراتهم ، بعد أن عزز قضاه بفتوى من فقهاء مصر وعلماها . . وقد صلب أمراء الكنانية على النخل كما هم بثيابهم ومناطقهم جزاء على فعلتهم هذه .

بعد ذلك ارتد الملك الصالح أيوب على مملوكه نحر الدين فى حق زائد إذ كان متألماً لرجوعه بالعساكر عن دمياط وتهاونه بها حتى وقعت بين برائن الفاتحين الأجانب . . غير أن الوقت كان حرجاً ، فكتم غيظه وأسر هذا الأمر فى نفسه إلى أن تنكشف النعمة .

حينئذ تسلل الخوف إلى قلوب بمالك الصالح بعد ما رأوه من إعدامه زعماء الكنانية ، وفكروا في التخصص منه . وكادت هذه المؤامرة أن تخرج إلى حيز التنفيذ لولا أن منهم قائدهم من ذلك قائلاً لهم إن السلطان يوشك أن يموت ، فإن مات فقد استراحوا منه ، وإلا فهو بين أيديهم لهم أن يفعلوا به ما يطيّب لهم .

رأى السلطان والحالة هذه أن الحكمة تملّ عليه التراجع مع جيشه جنوباً إلى المنصورة للتحصن بها ضد الفرنسيين . . فهي تمتاز بموقع حصين إذ يحميها النيل غرباً ، ويفصل بحر أشموم بينها وبين القرنج في الشمال . . فأصدر أوامره بالرحيل . وحمل في سفينة حيث أن مرضه كان إذ ذاك قد أقعده عن المشى ، حتى بلغ المنصورة في يوم الثلاثاء الثامن من يونيو ونزل في نفس القصر الذي كان أبوه الملك الكامل محمد ينزل فيه من قبل . . واجتمعت بالمدينة جموع غفيرة من أفراد الشعب والمتطوعين للجهاد ضد الصليبيين الغزاة . . وهم الذين سيسجلون بهذا الجهاد صفحة مجيدة في تاريخ المنصورة ، بل وفي تاريخ الوادي والشرق العربي من محيطه إلى خليجه ، ضاربين أروع الأمثلة في البطولة والمقاومة الشعبية . .

كذلك شرع الجند على الفور في إقامة الاستحكامات حول المدينة ، فأصلحوا السور التي كان يحيط بها من ناحية البحر وستره بالستائر ، ونصبوا آلات القتال لتكون في مواجهة العدو . .

وقد تمت قطع الأسطول المصري وفيها من الفرسان والمشاة العدد الوفير ، وأرست أمام السور . . وكان من بينها الشوانى أو الغربان وهي نوع من السفن الحربية الكبيرة كانوا يقيمون فيها أبراجاً وقلاعاً للدفاع

والهجوم .. والحراريق وكانت تستخدم لحل الأسلحة النارية مثل  
مكاحل البارود وقوارير النفط ، وكان بها مرام تلقى منها التيران على  
العدو .. والطرائد التي تستخدم لحل الخيل للأسطول .. والمسطحات  
لنقل الجند والعتاد ، وسميت كذلك لأنها مسطحة ..

كانت هذه الاستعدادات التي قام بها الصالح أيوب ضرورية للوقوف  
في وجه الفرنسيين إذا ما تحركوا من دمياط جنوباً صوب عاصمة المعز .  
نعم أيها الفرنسيون .. نعم أيها الملك الضليل .. كانت هذه  
الاستعدادات ضرورية لوقف عدوانكم الغاشم الأثيم . كان هذا هو  
شعار كل فرد من أبناء الوادي .. المسلم والمسيحي .. الشعب والجيش ..  
الكبير والصغير .. الغني والفقير .. الجميع يقفون صفاً واحداً وقلباً  
واحداً وروحاً واحدة في انتظار اليوم الفاصل لتلقيين دولة العدوان  
الدرس الذي لن تنساه .



## سورية الشقيقة

امتدت هذه الوحدة خارج مصر لتشمل الوطن العربي الكبير ..  
امتدت إلى سورية الشقيقة . ، لقد عز عليها أن تجد أختاً لها في الجهاد  
يُنالها السوء .. فالعدوان على مصر عدوان عليها إذ أن مصر جزء منها  
وهي جزء من مصر . وكلاهما متمم للآخر ..

فإن بلغ السوريين امتلاك الفرنسيين لدمياط حتى قصد عسكرهم  
إلى مدينة صيدا ، واستولوا عليها من الفرنج بعد فترة من الحصار والقتال  
بين الفريقين .. وأخذوا بعد ذلك في توجيه الضربات الشديدة إلى باقي  
ممتلكات الصليبيين في الشرق بقصد إزعاجهم ومضايقتهم ، جزاء وفاقاً  
على ما اقترفوه في حق تلك الشعوب الآمنة .. وقد ورد الخبر بذلك إلى  
مصر ، فسر أهلها سروراً كبيراً ..

كان هذا الإجراء الحاسم الذي اتخذته سورية ضربة موجهة إلى قلب  
الاستعمار .. بل كان تضامناً عربياً خالصاً تأصلت جذوره منذ القدم ..  
لقد أقدم السوريون على هذه الحركة ولسان حالهم يقول للعبيدين :  
« دعونا وشأننا .. اخرجوا من ديارنا .. اغربوا عنا .. إن حاولناكم  
لن نفرعنا ولن تنال من وحدتنا وعروبتنا وقوميتنا » .

لقد أدركوا أنه بوسع المسلمين في مصر والشام إذا اتحدت جهودهم  
واختفت كلمتهم ، أن يدفعوا عنهم خطر الجماعات الصليبية ، وأن يعملوا  
على مضايقتها بشتى الطرق والوسائل .. وهم لم ينسوا بعد أن ما أصابه

الصليبيون من نجاح في بداية حركتهم إنما كان على حساب ضعف الولايات الإسلامية وانقسامها وتفككها ، وأنهم كلما اتحدوا كان ذلك بشيراً بحركة يقظة شاملة وتكتل عربي تعقبه حملات مضادة على الصليبيين الدخلاء وإماراتهم في الشرق . . وهم ما زالوا يذكرّون أن أولى الحملات الصليبية التي أفلحت في تحقيق أطماعها وتأسيس إماراتها في الشرق لتكون شوكة في جنبات الدول العربية إنما كان نجاحها على حساب العالم الإسلامي الذي كان منقسماً على نفسه آنذاك مما أضعفه عن مواجهة العدوان الغربي . . وأنه عند ما أحس العرب بالخطر المحدق بهم سعوا إلى توحيد صفوفهم لمقاومة الفرنج وطردهم من ديارهم . وظهرت في ذلك الوقت شخصيات عربية لامعة على رأسها صلاح الدين الأيوبي بطل حطين وقاتل بيت المقدس ومؤسس دولة الأيوبيين بمصر والجد الأكبر للملك الصالح نجم الدين أيوب الذي أغار لويس وجيشه على البلاد في عهده . .

• • •

هذا هو دور سورية في المعركة ، وهكذا كان السوريون أيام العدوان على مصر . .

ولذا عدنا إلى الفرنسيين في دمياط ، نجد أنهم بعد أن استقرت بهم الأحوال إلى حد ما ، توقفت الأعمال الحربية فترة من الزمن . . وظلوا مقيمين بالمدينة مدة تقرب من ستة أشهر دون القيام بأي عمل جدي . . فترة طويلة من الكسل اختل في أثنائها النظام في معسكراتهم ، وساد الإفراط الفاضح في اللذات والفجور بين أمرائهم ونبلائهم وجنودهم على السواء ، كما حدث تماماً خلال إقامتهم بقبرص . . وانهمك جنودهم

في الشبوات مع نساء الفرنج الذين قدموا إليهم من معاقلم بالشام .. وك  
من ليال حرام قضاهأ أولئك القوم بين أحضان خليلاتهم ..

مسكين لويس التاسع .. كانت كل هذه الفضائح ترتكب أمام عينيه  
وعلى الرغم من إرادته ، حتى بات عاجزاً عن السيطرة على جيوشه أو  
كبح جماحها ..

ولاذأحن المصريون باستسلام الأعداء إلى الجود وامتناعهم عن  
العمل ، أخذوا يشنون عليهم الغارات متوالية هوجاء ، وأخذوا في  
مناوشتهم القتال ، حتى أقضوا مضاجعهم وأقلقوا راحتهم ..

ففي منتصف أغسطس من عام ١٢٤٩م — سنة ٨٦٤٧ هـاجمت القوات  
المصرية معسكر الأعداء بدمياط من ناحية البر ، وكان الملك الفرنسي قد  
أصدر أمراً لرجاله بعدم مغادرة المعسكر دون تصريح منه . ولكن أحد  
كبار الفرنج ضرب بأوامر لويس عرض الحائط ، فلبس درعه ، وامتنطى  
جواده ، وانطلق مع بعض رجاله من خيمته مسرعاً نحو المصريين ..  
وكانت فرصة طيبة أوسع فيها جند مصر أولئك الرجال ضرباً ،  
وأصابوهم بجراح بالغة .. وكاد أن يهلك قائدهم لولا أن أسرع لإنقاذه  
بعض إخوانه ، وحملوه إلى خيمته وهو فاقد النطق ، حيث مات بعد ذلك  
متأثراً بجراحه ..

وأخذ سلطان مصر الصالح أيوب يتغفن في مضايقة الصليبيين . فراح  
يمنح مبلغاً من المال عن كل رأس من رموس الأعداء يأتيه به أحد  
جنوده .. وكان مشاة المصريين يتسللون إلى المعسكر الفرنسي ليلاً ،

ويجهزون على كل من تصل أيديهم إليه ، ثم يهودون أدراجهم من حيث أتوا حاملين معهم رموس قتلهم ..

وإحكاماً للرقابة أصدر لويس أوامره بأن يقوم الجند بحراسة المعسكر وهم مترجلون ، بعد أن لاحظ أن المصريين كانوا يتسللون إلى داخل المعسكر خلف جياذ الصليبيين .. ثم شرعوا بعد ذلك في حفر خنادق عميقة حول معسكرهم ، وعهد إلى رماة السهام بحراسة هذه الخنادق وجميع المنافذ المؤدية إلى داخل المعسكر ليحولوا دون وصول المصريين إليه .

وعلى الرغم من كل هذه الاحتياطات ، فإن حرب العصابات والكركات الليلية هذه أخذت تتوالى على معسكر الفرنسيين بصورة أدخلت الرعب في نفوسهم .. واغتيل حراسهم واحداً إثر الآخر ، وأسر كثير من رجالهم .. وكان الأسرى يصلون تبعاً إلى القاهرة وقد نكست أعلامهم .. ووقع في أيدي المصريين ما يقرب من ثلاثمائة أسير من الفرنج خلال شهر واحد ..

وحدث في إحدى هذه الغارات أن ظفرت البحرية المصرية بالقرب من البرلس بسفينة للعدو من النوع المعروف باسم مسطح بها عدد من المحاربين ..

بدأ الأسطول المصري يؤدي مهمته الموكولة إليه بنجاح تام أثار قلق المعتدين ودهشتهم .. وبدأ يقطع الطريق على سفنهم ، وينازلهم في معارك بحرية يخرج منها ظافراً ..

أصبح الدخلاء في موقف لا يحسدون عليه . فلم يقتصر الأمر على الضربات التي أخذ المصريون في كيلها لهم ، والهجمات التي كانوا يشنونها على معسكراتهم ليل نهار ، وحرب الكر والفر التي سببت لهم مضايقات كثيرة ، بل بدأت المثونة تنفذ بسبب جشع التجار المتعهدين . . وأخذت العواصف الشديدة تتعاقب على الوجه البحرى ، حتى لقد تحطم عدد كبير من سفنهم الراسية على الشاطئ\* بقرب دمياط حيث دفعتها الرياح بعيداً ففدحت الخسارة في الأرواح والعتاد .

وفي أخريات أكتوبر من نفس العام عادت السفن الشاردة التي جنحت بها الرياح نحو شواطئ\* سورية ، كما وصل إلى دمياط في نفس الوقت ألفونس كونت بواتيه شقيق لويس التاسع قادما من فرنسا على رأس نجدة هزيلة تمكن من جمعها بعد عناء كبير .

وفي الحال جمع الملك الفرنسى مجلس مشورته لاختيار الطريق الذى يسلكونه بعد مغادرتهم دمياط : أيتجهون نحو الإسكندرية ، أم يسIRON قدماً إلى القاهرة ؟

احتدم الخلاف والنقاش بين الحاضرين ، فقال بطرس كونت بريتانى وهو من كبار النبلاء الذين اشتركوا في الحملة :

— يجب علينا المسير إلى الإسكندرية والاستيلاء عليها أولاً .. ثم التوجه إلى القاهرة بعد ذلك ، فسوف نجد في هذا الثغر مرفأً يكون خير وكر لأسطولنا الذى تشتت شمله وتبعثرت قطعه .

وأيده في هذا رأى معظم قواد الجيش . ثم أضاف الكونت قائلاً :

— أيها السادة ، إن الإسكندرية تفضل دمياط في كثير من النواحي ..  
فهى كيناء أصلح لإيواء سفننا .. ويمكن استخدامها كقاعدة للإمداد  
والعدوان .. وإلها يستطيع أسطولنا أن يجلب المؤن والإمدادات من  
بلادنا دون جهد أو مشقة .

ولكن روبرت كونت أرتوا شقيق لويس لم يوافق على هذه الخطة  
واستهجنها قائلاً :

— إنه لمن الحق الذهاب إلى الإسكندرية . يجب أن نضع أيدينا  
بادئ ذي بدء على العاصمة ، فإن الاستيلاء عليها يستتبع حتماً الاستيلاء  
على مصر كلها ، بل وعلى كافة البلاد العربية . إن من يريد أن يقتل الأفعى  
يجب أن يبدأ برأسها .

واستقر الرأى على الأخذ بالفكرة الثانية .

وتقرر بذلك مسير الجيش الصليبي جنوباً نحو القاهرة .

كانت هذه أضغاث أحلام سرعان ماتكسرت على صخرة الواقع

المر المرر !!

## شجرة الدر في الميدان

وأخيراً في يوم السبت العشرين من نوفمبر ، وكانت السفن الشاردة قد عادت إلى دمياط ، غادر الفرنسيون وعلى رأسهم الملك لويس المدينة بحدم وحديدهم متقدمين نحو عاصمة الديار المصرية ، بعد أن تركوها في حراسة جانب من قواتهم وبحارتهم . ولم يتمكن لويس من اصطحاب زوجته مارجريت التي اضطرت إلى البقاء بدمياط إذ كانت تعاني آلام الوضع . واتخذ الفرنج نفس الطريق الوعر الذي سار فيه أسلافهم من قبل ، فكان هذا من الأسباب التي عجّلت باندحارهم .

غادر الفرنسيون دمياط وقد اشتدت وطأة المرض على الملك الصالح أيوب . وفي ليل الاثنين الثاني والعشرين من نوفمبر ، وكان ذلك بعد مسير الفرنج بيومين ، مات السلطان ، فكانت الطامة الكبرى .

مات الصالح أيوب والغزاة قد غادروا دمياط وأعدوا العدة للمعركة الحاسمة التي تفتح لهم الطريق إلى القاهرة ..

في هذا الوقت العصيب برزت في الميدان زوجة الملك الصالح شجرة الدر ، برزت لتؤدي دورها في المعركة ، لقد أتت هذه المرأة من ضروب السياسة والدهاء ماحير الأعداء أنفسهم وما عجز عنه فحول الحاكين .

فطنت أرملة الصالح إلى النتائج السيئة التي سيؤدي إليها حتماً إذاعة موت زوجها بين صفوف الأعداء والاصدقاء على السواء ، وهي العليمة

الحبيرة بكل شيء .. إذ كان زوجها يرجع إليها للاستئناس برأيها وأخذ مشورتها في المشكلات التي تعرض له ، وأدركت بثاقب نظرها أن ذلك سيضعف الروح المعنوية بين الجند وعامة الشعب ، وقد يؤدي إلى تشتيت شملهم والفرنج على الأبواب ، لذلك عازمت على إبقاء خبر موت السلطان سراً خفياً لا يعرفه إلا قائد الجيش الأمير غر الدين يوسف بن الشيخ والطواشي جمال الدين محسن الصالحى وكان أقرب الناس إلى السلطان الراحل ، وإليه كان القيام بأمر المالك البحرية ، ونجحت في ذلك نجاحاً يدل على حسن تدبيرها وسعة حيلتها ..

تم كل هذا في سرعة وهدوء دون جلبه أو ضوضاء ، وبعد ذلك وضعت جثة زوجها في تابوت ، ونقلتها خفية من المنصورة في سفينة صغيرة على النيل إلى القلعة القائمة في جزيرة الروضة حيث كانت توجد مكنتات المالك البحرية ، لقد آثرت إبعاد الجثة عن المعسكر ، بينما ظل الأطباء ملازمين لقصر السلطان ليظن الناس أنه مريض .

استمر كل شيء في سيره الطبيعي كأن لم يحدث حدث ، فحسام الدين ابن أبي علي نائب السلطنة بالقاهرة كان يتلقى الأوامر والمكاتبات من المعسكر بالمنصورة ، وكان الذى يملئ هذه الأوامر شجرة الدر ، أما التوقيع فباسم السلطان الراحل ، إذ كان هذا التوقيع ضرورياً لجعل تلك الأوامر سارية المفعول ، وكان يقلد توقيع الصالح أيوب أحد خدمه ويدعى صواب السهيل ، ولا يشك من رآه أنه خط السلطان ، وفي بعض الأحيان كانت شجرة الدر نفسها هى التى تقلد علامة السلطنة على الأوامر لبراعتها في الكتابة .



ظلت الأعمال الرسمية تجري باسم الصالح نجم الدين كما لو كان حياً ، وكانت مائدته يمد سماطها ، كما كان الأمراء يدخلون إلى السباط ويأكلون وينصرفون كل يوم كالمعتاد .. وإذا مأسأل فرد عن السلطان تحتج شجرة الدر عن تغيبه بأنه مريض ولا يمكنه مقابلة أحد .

وعلى الرغم من هذا التكتّم الشديد ، فقد ارتأب البعض في الحقيقة وأدرك موت السلطان ، ولكن أحداً لم يجرؤ على إبداء أية ملاحظة أو النفوذ بكلمة خوفاً من الفرنج الذين طرقوا البلاد ووضعوا أيديهم على جزء منها .

• • •

وكان للسلطان الراحل ثلاثة أبناء من زوجة له غير شجرة الدر تعرف ببنت العالة ، أكبرهم الملك المغيث فتح الدين عمر وقد مات وهو في اعتقال الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بدمشق ، وأوسطهم الملك المعظم غياث الدين توران شاه وهو الوحيد الذي ظل على قيد الحياة ، وأصغرهم الملك القاهر وقد مات في حياة أبيه . كما أنجب نجم الدين ابناً رابعاً من زوجه الثانية شجرة الدر يدعى خليل ، مات هو الآخر في حياة أبيه صغيراً .

وكان المعظم توران شاه في ذلك الوقت نائباً عن أبيه في حسن كيفا الواقع بين ديار بكر وجزيرة ابن عمر على نهر دجلة . فاتفقت شجرة الدر مع الأمراء على مبايعته بالسلطنة في غيبته . تجمعت الأمراء وقواد الجيش في المعسكر بالمنصورة ، وقالت لهم إن السلطان الصالح أيوب

بأمرهم بأن يحلفوا له ثم من بعده لابنه المعظم . كما كتبت إلى الأمير  
حسام الدين في ذلك . وهكذا حلف العسكر للملك الصالح نجم الدين  
ولابنه المعظم بولاية العهد من بعده . وأصبح يخطب للمعظم بعد أبيه  
على المنابر . وقُتِش اسمه على الدراهم والدنانير بعد اسم أبيه .. تم كل  
ذلك ولم يكن قد أعلن موت السلطان بعد .

بعد ذلك بعثت شجرة الدر والأمراء في طلب المعظم من الحصن ..  
وأُسرِعَ الرسل والقضاد واحدًا إثر الآخر يستعجلون حضوره في الوقت  
الذي كانت فيه البلاد مهددة من قوات العدوان ، وفي أمس الحاجة إلى  
رجل عنك اعتداد الحكم وله بعض الخبرة بشئون الحرب ليدبر أمورها  
ويخرج بها سالمة من هذه المحنة . وعهدوا إلى الأمير نغر الدين  
بقيادة الجيوش وتدبير شئون المملكة إلى أن يصل المعظم من الحصن ..

## الفرنسيون في الطريق إلى المنصورة

في هذه الفترة العصية من تاريخ البلاد التي أعقبت موت السلطان الصالح أيوب . ترك الفرنسيون دمياط وتقدموا جنوباً نحو القاهرة ، وأسطولهم في نهر النيل يحاذيهم ، وقد اعتقدوا بعد أن وقعت دمياط في أيديهم أنهم سوف لا يلاقون صعوبة في الاستيلاء على عاصمة الديار المصرية ، ساخرين من فكرة المقاومة التي قد يبدئها المصريون خلال الطريق ..

وكان الطريق الذي سلكوه عبارة عن منطقة مثلثة الشكل في الشمال الشرق من بحيرة المنزلة التي كانت تعرف وقتذاك ببجيرة تنيس .. ويسمونها جزيرة دمياط لأنه يحدها من الشمال الغربي فرع دمياط ومن الجنوب الشرقى بحر أشموم ، ومن الشرق ببجيرة للمنزلة .. وهي منطقة مليئة بالعقبات والعراقل ، إذ تعترضها الترع والمجارى المائية الكثيرة السريعة الجريان المنفرعة عن الفرع الشرق للنيل ، والتي تجعل المرور فيها صعباً خطيراً . فكانت أشبه بشبكة الصائد ، وتصلح لأن تكون أغفاخاً للإيقاع بالجيش المغير .. وغير ذلك فإنها تمر بعدد من مراكز الدفاع القوية التي يمكن القوات المصرية استغلالها ضدهم ..

وحدث أن اضطر الفرنج إلى التوقف في أثناء مسيرهم لسد إحدى القنوات بالقرب من دمياط لتسهيل مرور قواتهم .. وما كانوا يدرون أنهم يهدون الطريق لحلفهم ..

استأنف الفرنج مسيرهم في بطة شديد حتى بلغوا قرية فارسكور  
في يوم الخميس الثاني من ديسمبر دون أن تواجههم مقاومة جديدة من  
جانب القوات المصرية التي كانت قد أعدت عدتها لاستدراجهم  
والاشتباك معهم داخل المنصورة ..

كانت المنصورة هي الملتقى والمكان الموعود ..

## الجهاد المقدس

« وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ .. »

وفي اليوم التالي لوصول قوات لويس فارسكور، أرسل الأمير  
غفر الدين من المعسكر بالمنصورة كتاباً إلى القاهرة جاء في أوله : « انفروا  
خِفَافاً وَرِثَقَالاً ، وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ،  
ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » . وفيه يحض الناس على الجهاد  
ضد الفرنسيين ، والتطوع في الحرب المقدسة لقتال أولئك الغزاة  
ودفعهم عن البلاد . . وقد قرئ هذا الكتاب على أفراد الشعب  
على منبر الجامع الأزهر . .

وأخذت الكتب تتوالى على القاهرة في الحضر على الجهاد، وجاء  
في أحدها : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ ، وَعَسَى  
أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ  
كُرْهُ لَكُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » .

حركة غير عادية في العاصمة . . نشاط في كل مكان . . الخطب تلقى في  
المساجد والكنائس لحث الناس على الجهاد . . المظاهرات تسير مطالبة  
بسحق العدو ، والناس يحميون حياة الحرب . . الصيحات تملأ منذرة  
مهدة متوقعة . . الجميع يتطوعون في سلك الحرب المقدسة . . الآباء  
والأبناء . . الشيوخ والأطفال والنساء . . الجميع يسارعون للذهاب للملاقة

المعتدين .. كل فرد يريد أن يكون له قصب السبق في الفتك بأعداء الوطن .. أعداء الله .. وكل منهم يريد أن يكون شهيد المعركة .. فالموت فيها استشهاد في سبيل الله بل هو حياة باقية في الدار الآخرة ..  
« وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ » ..

اجتاح البلاد عاصفة من الحماسة الملتهبة ، وأخذ الزحف المقدس يسير من العاصمة شمالا صوب المعسكر المصرى فى المنصورة .. وكان فى كل مكان يمر به تتضم إليه جموع أخرى ..

استعدادات متواصلة .. كتل متراصة .. أيد متشابكة .. وجوه يعلوها العزم والإصرار .. حناجر تزار فى صوت واحد .. الموت للعدو .. الغناء للفرنسيين .. البقاء لك يا مصر .. النصر للبصريين ..

## الفرنسيون أمام بحر أشموم

في هذا الوقت الذي عبأت فيه البلاد قواها وأعدت عدتها ، ظل الأعداء يواصلون السير ، مسرعين تارة ومتباطئين أخرى ، حتى وصلوا إلى قرية شارمساح في الثامن من ديسمبر ، وهي قرية كبيرة كالمدينة من قرى مديرية النقيلية . . وفي الرابع عشر من نفس الشهر بلغوا البرمون الواقعة على الجانب الشرق للنيل إلى الجنوب من فارسكور . . وبذلك أصبحوا على مقربة من القوات المصرية التي تقيم جنوبي بحر أشموم . . وأخيراً في يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من ديسمبر بلغوا طرف جزيرة دمياط ، ونزلوا قبالة المصريين شمالي بحر أشموم ، ولا يفصل بين المعسكرين غير هذا البحر . .

والواقع أن هذه كانت أول عقبة جدية تصادف الحملة منذ قيامها ، ومن ثم ألقت هنالك رحلها ، واضطرت إلى المراقبة في انتظار ما قد تتمخض عنه الأيام من تطورات وأحداث لا يعلم مداها إلا الله . .

أما ذلك الحاجز الطبيعي الذي قام في وجوه المغيرين ، فهو ترعة صغيرة تسمى بحر أشموم تقطع على الحملة الطريق بين دمياط والقاهرة . . إذ ينقسم فرع دمياط شمالي المنصورة إلى فرعين ، يتجه أحدهما إلى دمياط ، وينحرف الآخر في اتجاه شمالي شرقي حيث يمر بمدينة أشموم طناح إلى أن يصب في بحيرة المنزلة . . وهذا الفرع هو المعروف ببحر أشموم . وقد تغير مجراه منذ ذلك الحين تغيراً كبيراً ، فهو الآن ينزع

عن الفرع الشرقى للذيل في نقطة قريبة جداً من المنصورة ، بينما كانت موضع التقائه حينذاك يبعد عن تلك المدينة إلى جهة الشمال نحو أربعة أميال أو خمسة ..

وعلى الرقعة الواقعة في هذه المسافة كانت ترابط القوات المصرية التي وقفت متأهبة للقاء الغزاة .. وهناك وقعت بين قوى الحق والإيمان وقوى الباطل والعدوان معركة ثان كبيرة كان من أثرهما التعجيل بخاتمة هذه الحملة ..

أما المنصورة التي عاشت في ذلك الوقت أجد أيامها ، فهي التي بناها الملك الكامل محمد والد الصالح أيوب على الجانب الأيمن لفرع دمياط عند مفترق النيلين إلى دمياط وأشوم طناح .. بناها لصد عدوان سابق قام به الفرنج عندما حاصروا دمياط واستولوا عليها قبل ذلك التاريخ بثلاثين سنة .. وما زالت مدينة المنصورة القديمة في موقعها التي وجدها فيه الفرنسيون الغزاة عندما أغاروا على مصر في ختام القرن الثامن عشر الميلادى بقيادة نابليون بونابرت ، غير أنها اتسعت بعدئذ اتساعاً عظيماً خصوصاً من ناحية الشرق ..

وقد انتصرت المنصورة على الفرنسيين في عهد الكامل محمد وكانت تسميتها بهذا الاسم تيمناً بالنصر الذى أحرزته .. وسوف تنتصر عليهم هذه المرة أيضاً لتضيف إلى مفاخرها مفعرة أخرى ، وإلى أعجادها مجداً جديداً ..

على أى حال ، عند ما وصل الفرنسيون قبالة بحر أشوم ، أقاموا



معسكرهم على الضفة الشمالية منه .. وأصبح هذا البحر حاجزاً بين معسكرهم ومعسكر المصريين الذي كان يوجد على الضفة الجنوبية على تل مرزح يعرف باسم «جديلة» ، مرابطاً في وجه الأعداء لمنعهم من عبور القناة والتقدم نحو الجنوب .. وجديلة هذه كانت تطل على الشاطئ الجنوبي لبحر أشمون على بعد ثلاثة كيلومترات شمال شرق المنصورة ونحو كيلومتر إلى الشرق من فرع دمياط . ولا تزال جديلة هذه باقية إلى اليوم ، وهي من ضواحي للمنصورة .

وبدأ كل من الفريقين يستعد للحركة الحاسمة . .

° ° °

« إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمُ » . .

كان أول ما اهتم له الأعداء هو تأمين أنفسهم في مركزهم الجديد .. فأخذوا يحصنون معسكرهم ، وحفروا حوله الخنادق ، وأقاموا المتاريس وابتنوا سوراً وستروه بالستار .. فلما تم لهم ذلك نصبوا المنجنيقات وقاذفات الأحجار ، وهي آلات التدمير التي تقذف الأحجار والمواد الحارقة .. ونزلت سفنهم بإزائهم في نهر النيل ، والسفن المصرية بإزاء المنصورة ..

وسرعان ما بدأت المناوشات بين الجيشين .. ففي الحادى والعشرين من ديسمبر بعث الأمير غزالين جانباً من قواته شمال هذه القناة حيث يقم الفرنج ، وكان ذلك عن طريق ممرات سرية لمباغتتهم في معسكرهم . وقد

تمكنوا من مفاجأة العدو الذى غرق بعض رجاله فى النهر عند محاولتهم الفرار ..

وبعد ذلك بأربعة أيام أمر القائد المصرى جماعة من جنده بمعاودة الهجوم على الفرنسيين فى برهم .. واندفع المصريون صوب معسكر الأعداء باذلين سيوفهم فيمن التقوا بهم ، وقفلوا بعد ذلك راجعين إلى مراكزهم ..

وهكذا أخذ المصريون يشنون الغارات على المعسكر الفرنسى بين الحين والآخر .. كما أخذوا يوجهون إلى المغيرين ضربات متفرقة عبر بحر أشموم ..

أما الشعب فقد وقف أمام النزاة كالصخرة الثابتة ، وهى صخرة لا تلين ولا تزعزع . فكفاحه منبثق عن عقيدة راسخة وإيمان صادق وعن رغبة حقيقية فى الجهاد . وإن إخلاص أبناء الشعب لهذا الاعتقاد دفاعاً عن كيانهم ضد أولئك المغيرين كان يفوق إخلاص الصليبيين له .. وكان الفرنسيون يحدون منهم أذى كثيراً .. فكانوا يتصيدونهم ، ويجهزون على كل من تصل أيديهم إليه .. فإذا شعر بهم الفرنج ، ألغوا بأنفسهم فى الماء وسبحوا إلى أن يصلوا إلى الجانب الذى فيه المصريون ..

وتفتقت أذهان الأهالى عن كثير من الخدع والحيل التى لجأوا إليها لمضايقة أعدائهم .. فكانوا يتفنون فى اختطاف الفرنج وأسرم بكافة الطرق التى تدعو إلى الدهشة والغرابة .. من ذلك أن أحد أفراد الشعب قوّر بطيخة خضراء ووضعها على رأسه وغطس فى الماء حتى حاذى الفرنج فظنه بعضهم بطيخة طافية على الماء ، ولما نزل لأخذها خطفه ذلك الشخص وأتى به أسيراً إلى معسكر المصريين ..

ولإزاء هذه الهجمات المتكررة والضربات المتلاحقة أمر الملك لويس بحفر الخنادق حول معسكره .. وأصبحت المياه تحيط به من جميع الجهات فالقناة تقع إلى جنوبه وفرع دمياط في الغرب ، والخنادق تحيط به من ناحيتي الشمال والشرق .. وخيل إليه أنه أصبح في مأمن من أن يصيبه أذى أو مكروه .. وخيل إليه أن الأمور ستسير وفق هواه ! ولكنه لم يكن يدري أن ساعة الصفر قد قربت .. وأن النهاية آتية لا ريب فيها ..

وحدث أن علم جواسيس الفرنسيين باعترام القائد المصري مهاجمة معسكرهم ، فأسرع لويس بمضاعفة الاحتياطات .. فكان على أخيه روبرت كونت أرتوا حراسة معدات القتال ، بينما كلف شقيقه الآخر شارل كونت انجو بحراسة المعسكر من الناحية الجنوبية . أما شقيقه الثالث ألفونس كونت بواتييه ومعه نبله شامبانيا ، فكان عليهم الدفاع عن المعسكر من الشمال من ناحية دمياط ..

ظن لويس أنه ضمن المعركة .. وأخذ يفرك يديه طرباً وسروراً .. وكيف لا والرقابة مشددة والاحتياطات قائمة على قدم وساق !؟ ونسى أنه أمام رجال أقوياء أشداء .. أقوياء بآلياتهم .. أقوياء بوحدهم وتضامهم .. أشداء بمعداتهم وسلاحهم .. نسي كل هذا .. أو لعله تناسى كل هذا !

وفي العشرين من يناير من عام ١٢٥٠ أصدر الأمير غر الدين الأيوبي أوامره إلى قواته بالعبور إلى البقعة الكائنة بين فرع دمياط والصفحة الشمالية لبحر أشمون حيث يوجد المعسكر الفرنسي .. واصطلت القوات المصرية في نظام رائع بديع من أحد النهرين إلى الآخر .. وسرعان

حائض القتال .. اندفع المصريون صوب كونت انجو وقواته ، وفي حركة بارعة التفوا حولهم وأنزلوا بهم أقسى الضربات ، حتى أن الكثيرين منهم غرقوا في النهر .. وأسرع أحد قواد الفرنج لمعاونة شارل .. لكن القوات المصرية أوقفته على الأرض وكسرت إحدى ساقيه ، لحمله اثنان من رجاله إلى داخل المعسكر .. ومن الشمال أخذ الفونس كونت بواتيه وفرسان شامبانيا في مطاردة قوات غر الدين التي اندفعت نحوهم وأطبقت عليهم من كل جانب ..

وقد خرجت العساكر المصرية من هذه المعركة ظافرة دون أن تلحق بها أية خسارة ، وبعد أن فتكت بعدد كبير من فرسان الفرنج وأسرت الكثير من أكابر قومهم .. واقتيد الأسرى إلى العاصمة في زفة حماسية ..



هكذا كانت هذه الفترة منذ وصول الفرنسيين قبالة بحر أشعوم .. قتالا مستمرا بين الفريقين يكاد لا ينقطع .. فالأعداء يلقون الحجارة من آلاتهم ومعداتهم على المصريين عبر القناة علمهم يرحزونهم عن مواقعهم .. ولكن دون جدوى .. والعساكر المصرية ترد لهم العدوان مرتين والكيل كيلين .. وهكذا حمى وطيس القتال والتراشق بينهما ليل نهار حتى فدحت الخسارة في المعسكر الفرنجي في الأرواح والعتاد .. ارتسمت علامات الكآبة والحزن على وجه الملك الفرنسي الذي بات مغلوباً على أمره لا يدري ماذا يفعل ، ومن أين يبدأ ، وإلى أين ينتهى به المطاف .. لقد أدرك أنه لا يستطيع الغلبة على المصريين إلا إذا

التحم معهم في معركة يشترك فيها الجيشان بكامل قواتهما وجهاً لوجه ..  
وحتى هذه المعركة لم تكن مضمونة النتائج بالنسبة له .. ولا سبيل إلى  
هذا وبحر أشموم يفصل بينه وبينهم ..

وأخيراً هده تفكيره إلى محاولة بناء جسر على هذا البحر ليعبر عليه  
جنوده إلى الضفة الأخرى حيث يوجد المعسكر المصرى ..

وفعلاً بدأ الفرج في تشييد هذا الجسر وقد داعبت جفونهم الآمال  
الحلوة .. ولكن مهمتهم لم تكن سهلة ، حسبما كانوا يتوهمون ، تحت  
هذا السيل الجارف من القذائف والأحجار التى أخذ يطرهم بها  
المصريون .. حينئذ أمر لويس بإقامة حاجز مرتفع في أعلاه برجان من  
الخشب يقف عليهما حملة القسى للدفاع عن العمال عند قيامهم ببناء  
الجسر ..

تركهم المصريون يشيدون أبراجهم .. واكتفوا بإعداد آلاتهم التى  
تقذف الأحجار والمواد الملتبئة الحارقة على طول الضفة الجنوبية لبحر  
أشموم فى مواجهة معسكر العدو .. فلما انتهى الفرنسيون من تشييد  
البرجين بدأوا فى عمل الجسر وقد ملأهم الحماسة ظناً منهم أن الأمور  
ستسير وفق هواهم .

ولكنهم كانوا واهمين ..

كان المصريون يیزونهم فى فن الهندسة .. فبمجرد أن تم تشييد  
الجسر ، إذا بالفرنج يرونه يتداعى وينهار .. وتتداعى معه آمالهم وتنهار  
أحلامهم .. فإنه حينما أبصر المصريون هذا الجسر يمد على القناة ، بادروا  
بحفر خنادق عميقة ملاصقة لطرفه الذى فى ناحيتهم ، ومن ثم كانت مياه

النيل تأتي متدفقة فلا تجد منفذاً لها غير هذه الحفائر فتندفع فيها وتملؤها .  
وهكذا كانوا يفسدون عليهم في يوم واحد ما كانوا ينجزونه في عدة أسابيع ..  
وباليت الأمر قد وقف عند هذا الحد .. إذن لمان الحطاب .. فقد  
أدرك العدو كذلك أن المصريين يتفوقون عليه في استخدام أدوات  
الحرب وآلات القتال ..

لقد ظهر في ميدان القتال في تلك الفترة سلاح أشد فتكاً من كل آلات  
الحرب آنذاك .. سلاح لم يكن للفرنج أنفسهم عهد به من قبل .. سلاح  
سيذيقهم الهوان ألواناً .. ذلك السلاح هو النار الإغريقية التي أزعجتهم ،  
وألقت الرعب في أقدستهم ، وأوقعت الخيل في صفوفهم ، والتي حطم بها  
المصريون كل ما أعده الغزاة للهجوم الحاسم .

كانت تلك النار تندفع نحو الأعداء على هيئة كرة كبيرة ، وذيلها  
من خلفها كحرا ب طويلة هائلة ، لها دوى مزعج كدوى الصاعقة المنفضة  
من السماء ، ولها صوت يهزم كالرعد القاصف .. وهي أشبه ما تكون  
بتنين هائل طائر في الجو .. وكانت النار المنبعثة من هذه الكتلة الهائلة  
من اللهب تلتقي في معسكر الفرنسيين ضوئاً متوهجاً يجعل الرؤية واضحة  
تماماً كما لو كان الوقت نهاراً .

استولى الذعر والفرع على الفرنج أمام هذا السلاح الجديد الفتاك ..  
وباتوا في خطر داهم لم يتعرضوا لمثله من قبل .. خطر فيه هلاكهم  
وقناء محقق لهم ..

وسرعان ما وضع المصريون قاذفات النار هذه تجاه الصليبيين لكي  
يحطموها البرجين .. وفي غسق الليل رموا بها الفرنج ، فاندلعت النيران في

البرجين الخشبيين والتمتهما .. وحاول لويس بناء برجين آخرين ، ولكن محاولته هذه لم تكن بأحسن من سابقتها .. إذ سرعان ما سيطر المصريون نيرانهم على الصليبيين ومعداتهم .. وللمرة الثانية تندلع ألسنة اللهب في البرجين ويحترقان ويصبحان أثرأ بعد عين ..

وهل جند مصر على الجانب الآخر من النهر ، وقد غرهم السرور وهم يرون أبراج أعدائهم تنهار وتنحدر إلى جبال من نار .. بينما أخذ الأهالي يرقصون ويقفزون من شدة الفرح .. وكانت تصل الفرج أصوات المصريين وهم يهللون ويهتفون .. والله أكبر .. الله أكبر ، .

وبدا ديب اليأس القاتل يدب في نفوس الفرنسيين .. لقد أعييتهم الحيلة ، كما أفقدتهم هذه النار الجهنمية رشدهم وصوابهم ..  
قال أحد كبار قوادهم :

— أيها السادة .. نحن في خطر داهم لم نتعرض له من قبل ، لأن العدو لو صوب النيران نحونا مرة أخرى وبقينا في أماكننا لهلكنا .. ولو أننا غادرنا مراكزنا للحقنا العار .. فلا منفذ لنا من هذا الخطر إلا الإذعان والاستسلام ..

ولم يكن لويس نفسه أقل جزعاً من رجاله .. وكان كلما رأى المصريين يقذفون معسكره بالنيران الإغريقية ، وقف على سريره ، ورفع يديه إلى السماء مستغفراً وعيناه مبتلتان بالدموع :

— نعم .. إما هلاك محقق .. أو عار مشين .. لقد زرعنا الشوك فلن نجنى إلا الشوك .. لتسكن مشيئة الله ..

حينئذ لم يبق للصليبيين حيلة، وفقرت روحهم المعنوية .. إذ ذهبت محاولاتهم في عبور القناة ومواصلة الزحف أدراج الرياح .. فاستدعى الملك الأمراء والنبلاء، وراحوا يقلبون الأمر على وجوهه، ويتداولون فيما ينبغي اتخاذه في هذا السيل المظلم .

قال لويس موجهاً الحديث إلى مستشاريه وقد تملكه اليأس :  
 — أيها السادة .. أرى ظلاماً دامساً لا أكاد أستبين منه أى أمل لنا .. بل أرى صحابة كفيفة قائمة تخيم علينا .. فبماذا تشيرون ؟  
 ويسدى إليه القاصد الرسول النصيحة قائلاً :

— أرى يا مولاي التراجع من حيث أتينا .. فهذا أشرف لنا وأكرم .. وإلا فالويل لنا .. لقد فقدنا عدداً كبيراً من رجالنا وعدونا في سيل القيام بمحاولة خرقاء ، أعنى محاولة عبور هذا المجرى المائي أمام عدو قوى متأهب لمواجهةنا ونزالنا .

ويبدو أن الملك لم يستحسن قول القاصد ، فتكلم بحدة وانفعال :  
 — ويحك .. ماذا تقول ؟ أتريد أن تقضى على الروح المعنوية في الجيش ؟ أتريد أن تلحق بنا الهزيمة والعار ؟ ألا يكفيك ما لحق بقومنا في الماضي القريب والبعيد ؟ أتبغى مزيداً من الخيبة والفشل ؟ لا .. لا ..  
 إننا لن نتراجع قبل أن نحقق الغرض الذى قدمنا من أجله ..

وفياهم كذلك ، والنقاش على أشده أقبل أحد جواسيسهم فرحاً مهتلاً وقال :

— لقد عثرت يا مولاي على مخاضة في بحر أشموم ، ماؤها ضحل غير



عميق ، وهى بعيدة عن أعين الرقباء ، ويستطيع فرساننا عبورها على خيولهم دون مشقة كبيرة فى مأمن تحت جناح الليل ..

ولم يصدق لويس أذنيه وسأل الجاسوس فى لهفة :  
— أحقاً ما تقول يا جوتييه ؟ وأين تقع هذه المخاضة ؟  
فأجابه جوتييه قائلاً :

— تقع عند سلون .. ( وسلون هذه يا سيدى قرية من قرى مديرية  
الدقهلية بمركز دكرنس على الشاطئ الشرقى لبحر أشموم جنوبى  
دكرنس ) ..

فقال لويس :

— إذن ليذهب بعض رجالنا للتثبت من صحة ذلك .. ولنعد العدة  
لعبور القناة ..

فرح الصليديون بهذا الكشف وظنوه كسباً لهم ! فقد قضى جيشهم  
حوالى شهرين قبالة المنصورة وبحر أشموم يفصل بينهم وبين المصريين ..  
وأدرك لويس أنه يجب ألا يترك وسيلة لعبوره مهما كان هناك من  
أخطار ، ومما بلغ عمق المخاضة التى كان عليه أن يعبرها هو وفرسانه فى  
مواجهة أسود مصر ، مع غلبه باستحالة حصوله على مساعدة من مشائه ..  
ولكن هذا كان على أى حال أهون من بقائهم فى أماكنهم فى انتظار  
موت بطيء ..

وكانما أراد ملكهم أن يعجل بالخاتمة ، ولو كانت مرة أليمة ..

## موقعة المنصورة الأولى

وفي يوم الاثنين السابع من فبراير عام ١٢٥٠م، عقد ملك الفرنسيين مجلساً ثانياً من الأمراء والقواد اتفق فيه على تفاصيل خطة الهجوم للمركة المنتظرة التي كانوا يهدفون من ورائها إلى الاستيلاء على المنصورة، ومواصلة الزحف جنوباً إلى القاهرة . . .

كان على لويس نفسه ومعه إخوته الثلاثة والجانب الرئيسي من الفرسان السير إلى المخاضة وعبورها في فجر اليوم التالي إلى الضفة الجنوبية لبحر أشموم حيث يوجد المعسكر المصري . . . بينما تقرر أن يقوم بحراسة المعسكر الفرنسي على الضفة الشمالية للقناة جانب من الجيش يتألف من المشاة ورماة السهام تحت قيادة أحد رجالهم وهو دوق برجنديا . . . وكان على هؤلاء عند ما يتم عبور الملك وفرسانه ويستولى على المعسكر المصري، إستكمال بناء الجسر لتعبه فرقة المشاة وتلحق بقائدها . . . وبذلك يكون مشاة الصليبيين على اتصال بفرسانهم داخل المنصورة نفسها . . .

وكانت القوات التي ستعبّر المخاضة تنقسم إلى ثلاثة أقسام . . . ففي الطليعة فرقة روبرت كونت أرتوا ويصحبه أيضاً جماعة الفرسان الداوية بقيادة رئيسهم وليم دي سوناك، والفرقة الإنجليزية الهزيلة التي جمعها من إنجلترا وليم طويل السيف حاكم مقاطعة سالسبوري، وذلك مشاركة رمزية من إنجلترا في الحملة، إذ كانت أحوالها الداخلية وقتذاك لا تسمح

لها بالاشتراك في حرب فعلية غارج أراضها .. وكان مع المقدمة أيضاً فرقة الخيالة الملكية من حملة القسي .. تأتي بعد ذلك المجموعة الثانية من القوات وهي تتألف من فرسان شامانيا ، وكان على رأسها شارل كونت انجو .. ويتكون القسم الثالث من الملك وفرسانه ومعه ألفونس كونت بواتيه ..

وكان على رجال المقدمة عبور المخاضة إلى الجانب الغربي ، ومباغثة المصريين والاستيلاء على معسكرهم ، ثم التوقف عن القيام بأي عمل هجومي ، والانتظار إلى أن تعبر القوة الرئيسية من الفرسان تحت قيادة الملك لويس .. وحينئذ يمكن هذه القوات مجتمعة مواصلة الزحف ..  
وتقدرون فتضحك الأقدار ..

كانت الخطة كما يبدو محكمة متصلة الأطراف .. ولكن قوة الجيش المصرى واتحاد الشعب ، ورغبة الجميع التي تنبعث عن عقيدة وإيمان صادقين في الجهاد ضد المعتدين ، والدفاع عن كل شبر من أرض الوطن ، بالعرق والدم .. كان كل هذا كفيلاً بإحراز نصر مبين ..

• • •

وفي فجر الثلاثاء الثامن من فبراير توجه الجيش الصليبي إلى المخاضة يتقدمه الجاسوس .. وكانت عملية العبور شاقة بطيئة ، لأن هذا المعبر المائ كان أكثر عمقاً وأشد خطراً مما توقع الأعداء .. وقد اضطرت جيادهم إلى الخوض سباحة .. كما لاقوا هم أنفسهم صعوبة في الوصول

إلى الضفة الجنوبية نظراً لارتفاع الشاطئ وكثرة أوعاله .. وغرق عدد كبير منهم في الماء عند محاولتهم العبور ..

وعند ما تم لهم ذلك ، شنت مقدمة الجيش ، التي تتألف من كونت أرتوا وفرسانه وكونت سالسبورى وفرسانه وجماعة الداوية وهم من الرهبان المحاربين ، هجوماً خاطفاً على المصريين وعلى المساكن الكاثنة في ضواحي المنصورة .. ولم يرفق أولئك القوم بأحد ، ولم يرعوا حرمة النساء أو الشيوخ والأطفال ؛ بل كانوا يقتلون كل من يصادفونه في طريقهم دون رحمة أو هوادة ، ويخبطون في ذلك خبط عشواء ..

لقد تجرد الوحوش الضواري من إنسانيتهم وآدميتهم ، وانحطت القيم الخلقية عندهم ، فأصبحوا لا يفرقون عن الحيوانات في أفعالها .. وكأنهم قد أرادوا الانتقام لما حل بهم من بلاء من نساء وشيوخ وأطفال لا حول لهم ولا طول .. جرائم بشعة يرتكبونها في حق شعب مسلم أبي دون احترام للسن أو الجنس ..

ولم يكونوا يعتقدون أنهم سيدفعون الثمن غالباً من سمعتهم وشرفهم وكرامتهم .. فقد كان الشعب والجيش في انتظارهم داخل المنصورة نفسها .. المنصورة التي ستشهد أياماً من أبجد أيامها .. أياماً كلها عزة ونفاز ..

\*\*\*

كان الأمير غر الدين ، قائد القوات المصرية عند ما وصل الفرنسيون إلى الضفة الجنوبية لبحر أشمون وباغتوا المعسكر المصرى ، في الحمام يغتسل .. وعند ما بلغه البأ ، ولم يكن يخطر على باله أن يهاجمهم

الاعداء من هذه الناحية ، خرج مسرعاً واعتلى صهوة جواده دون أن يلبس درعه .. وانطلق وخلفه باقى المالك والجنود .. والتحموا مع العدو فى معركة دامية ، واقتحموا صفوفه فى شجاعة فائقة ، وشنوا عليه هجوماً شديداً ..

وفى تلك الاثناء .. وبينما القتال على أشده .. إذا بفارس فرسى يوجه إلى نحر الدين طعنة غادرة من الخلف .. ولكن القائد المصرى تحامل على نفسه ، والتفت ليووجه ضربة بسيفه إلى خصمه أصابت منه مقتلاً .. ثم وجد نفسه محاطاً بعدد من الأعداء والدماة تنزف منه بغزارة .. ومع ذلك ظل شاهراً سيفه يضرب ذات اليمين وذات الشمال ، ولكن فى قوة غائرة وضعف واضح .. وما هى إلا لحظات حتى أخذته السيوف من كل جانب .. فسقط فى ساحة الشرف مشتماً بالجراح ، ولفظ أنفاسه الأخيرة وهو يدعو إلى الكفاح ضد المعتدين وتطهير البلاد من دنسهم وأدرانهم ..

\*\*\*

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ .

كان هذا هو ناقوس الخطر .. بل بداية النهاية لقوات البنى والعدوان .. وكان كل شىء يبدو هادئاً فى الميدان ، وإن أخفى بين طياته العديد من المفاجآت التى لم يحسب لها الفرنج أى حساب ..

كانت جموع الشعب قد وصلت إلى المنصورة من كل فج ، وأخذ كل مكانه ليؤدى دوره فى المعركة .. معركة الحياة أو الموت .. معركة

البقاء أو القناء .. معركة في سبيل الحرية والكرامة والاستقلال ..  
وكانت القوات المصرية تعد العدة لليوم الفاصل .. يوم أوله لها وآخره  
على الأعداء ..

أصبحت المنصورة ، وهي المدينة الواحدة الهادئة ، بركاناً يغلي ويعد  
حممه ليقذف بها في وجوه المعتدين ..

ملا الغرور قلب روبرت شقيق الملك الفرنسي ، وأصر على الزحف  
على المدينة دون تمهل ، ودون تقدير للعواقب الوخيمة التي سوف تتجم  
عنه .. بل دون الانتظار ريثما يصل لويس مع باقي القوات ويتكامل  
عددهم .. أراد أن يحرز نصراً سريعاً ، وهو لا يعلم أنه بذلك يدق  
مسماراً كبيراً في نعش قومه ..

وقد عارض رئيس جماعة الفرسان الداوية هذه الخطة المرتجلة ، وحذر  
كونت أرتوا من مغبة تهوره وأنه سيورد المقدمة مورد التهلكة قائلاً :

— إذا كنت تبحث عن المتاعب فستجدها .. نحن لا نخشى شيئاً  
وسوف لا نتخلف ، بل سنذهب معكم .. ولكن اعلم جيداً أننا لن  
نعود من هذه المعركة .. فنحن أعلم منكم بالمصريين ووسائلهم في القتال ،  
لإذ سبق أن اشتركنا ضدهم في حروب كثيرة ، وعانينا منهم الأمرين ..  
وهنا تدخل الفارس الإنجليزي ولیم ظويل السيف في النقاش مشيراً  
بما نصح به رئيس الداوية ، فكان هذا مما زاد النزاع حدة ..

وقال روبرت في صلف وكبرياء :

— نحن فرسان فرنسا نعرف كيف نواصل القتال .. وكيف  
نهي المعركة ..

— نعم .. ستنتهى المعركة .. ولكن العواقب ستكون وخيمة ..  
ولن ينفع الندم بعد أن تزل القدم ..  
كان هذا هو رد وليم دى سوناك رئيس النابوية .. وكان يحمل  
الكثير من المعاني .. إذ لم تمض ساعات حتى تحققت نبوءة رئيس النابوية  
ونال روبرت ومن معه جزاءهم ..

## الشعب في المعركة

لم ينتصح روبرت بما قاله له زملاؤه من رجال المقدمة ، ولم ينتظر وصول باقي القوات ، إنما اندفع بفرسانه داخل المنصورة وفي أثره باقي الصليبيين وهم يرزحون تحت خوذهم ودروعهم الثقيلة على طريقة الحرب في تلك العصور .. وهكذا بدأت المعركة الثانية دون أى نظام ، بل ودون قيادة موحدة أو خطة مرسومة .. كما كان الانشقاق بادياً بين رجال المقدمة ، هذا في الوقت الذي لم يعبر فيه بعد الجانب الرئيسي من الجيش المنير بحر أشموم ..

وفي تلك الأثناء كان الجيش المصرى قد استجمع قواه ، وأعاد ترتيب قواته .. وكان من حسن حظه أن وجد له رئيساً جديداً في شخصية ركن الدين بيبرس البندقدارى قائد الممالك البحرية ، والذي غدا سلطاناً على مصر بعد عشر سنوات من ذلك التاريخ ..

ظل كونت أرتوا ورجال الطليعة في تقدمهم الطائش في أرض غير أرضهم وملك غير ملكهم ، حتى بلغوا باب قصر السلطان بالمدينة .. وهنا باغتهم الجيش المصرى من كل جانب .. وسد عليهم الطرق والمنافذ .. وأخذ يرميهم بالنفط والأحجار والمواد الملتبئة .. وهم يجرّون هنا وهناك فراراً من هذا الجحيم المستعر الذي ألقوا بأنفسهم فيه .. وكأنهم يتوقعون معجزة تنقذهم من سوء المصير .. ولكن ههنا ..

اشتدت المطاردة .. وحى وطيس القتال .. وأخذت القوات



المصرية تتعقب الفرنسيين في شوارع المدينة وأزقتها ودروبها .. قلبا  
لاذوا بالبيوت يريدون الاحتماء بها ، كانت تنتظرهم المفاجأة الكبرى  
التي أبلجت ألسنتهم ، وأطارت صوابهم ..

بدأت المقاومة الشعبية في أداء مهمتها .. إذ أقام الأهالي المتاريس  
في الطرقات .. وكانت النساء إلى جانب الرجال يحفرون الخنادق  
ويقومون الموانع حولها .. واتخذ السكان من منازلهم حصونا ومن  
شرفاتها قلاعاً .. وأخذوا يرمون الفرنسيين بالقذائف والأحجار والطوب  
وحض النراب من الأسطح والنوافذ ، ويرشقونهم بالسهام والرماح  
والنشاب .. وأخذتهم السيوف من كل جانب ، فهوى كثير من فرسانهم  
عن جيادهم صرعى .. كما أن خيولهم الضخمة لم تتمكن من التجول بين  
الأزقة والدروب ، فاختل نظامهم ، وازداد موقفهم دقة وخطورة ..

وكانت صيحات الجند والشعب تدوى كالرعد القاصف :  
« الجهاد .. الجهاد .. إلى المعركة .. النصر لنا .. ويل للمعتدين ..  
الهرجعة للعدو ، فتمسرى قشعريرة الخوف في أوصال الغزاة ..

ويستمر الزحف المقدس في زفيره المندوى الرهيب : « اقدفهم بالطوب  
والحجارة .. ارموهم بالسهام والرماح .. أصلوهم نيراناً حامية ..  
افتكوا بهم .. عليهم .. عليهم .. »

لقد أدى الشعب واجبه المقدس في هذا اليوم الأغر جنباً إلى جنب  
مع القوات المصرية النظامية في الدفاع عن المدينة ضد أولئك الدخلاء ..  
فلم يقف جامداً ، ولم يكن بمعزل عما يجري حوله من أحداث ..

وكان مظهرًا جليلاً حقاً ذلك التضامن المتين بين أبناء مصر العظيمة من مسلمين وأقباط ، والذي ظهر في أروع حلله وأبهائها يومذاك .. يوم أن تعانق الهلال والصليب واتحد القرآن والإنجيل .

والواقع أن تضامن القبط مع إخوانهم في الكفاح إنما يرجع إلى شعورهم الدائم المتوارث بالوطنية ، ولإيمانهم بها ، ولإخلاصهم لبلادهم .. وولائهم لأولى الأمر فيها .. ثم هم لم يفسوا الأضرار الجسيمة التي لحقتهم من الفرنجة أنفسهم الذين كانوا يغيرون على الديار المصرية من وقت لآخر ، ويعيثون فيها فساداً دون مراعاة لحرمة بيوت الله من مساجد وكنائس .. وهم لم يفسوا أيضاً أن الصليبيين عندما استولوا على بيت المقدس في بداية حركتهم العدوانية ، منعوا القبط من زيارة الأراضي المقدسة والحج إليها ، فلم يدخلوها حتى استردها منهم صلاح الدين الأيوبي .. وهم لم يفسوا كذلك أنهم كانوا في نظر الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ضالين عن جادة الدين الحقيقي مما جعلهم مكروهين في الأوساط اللاتينية لأنهم على غير مذهبهم .. كل هذا وذاك خلق بينهم وبين الغزاة هوة محيقة وسداً منيعاً ..

هكذا هب أهالي المنصورة في وجه العدو كرجل واحد ، توازروهم النجدات التي جاءتهم من القرى والمدن المجاورة . وأخذوا يقاتلون بلا كلل أو ملل ، وبلا رفق أو هوادة ، وقد ضحوا بكل شيء في سبيل حريتهم واستقلالهم ، حتى رأى الغزاة من شجاعتهم وإقدامهم ماراعهم وبلبل أفكارهم .. وقد مات بعض هؤلاء المجاهدين في أثناء المعركة ، وأطلق عليهم الناس لقب الشهداء بعد أن ضربوا أروع الأمثلة في التضحية

والكفاح .. ولا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بل أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ، .

وانجلى القتال أخيراً عما لم يحل للصليبيين بمخاطر .. فقد تم القضاء على فرقة الفرسان التي كانت تؤلف مقدمة الجيش الفرنسى قضاء مبرماً تقريباً .. وكان فى مقدمة الضحايا روبرت كونت أرتوا شقيق الملك لويس وثلاثمائة من فرسانه .. ووليم حاكم مقاطعة سالسبورى وغالبية رجاله .. وقد جماعة اللادوية حوالى ثلاثمائة من عاريهم .. وخرج رئيسهم من المعركة بعين واحدة .. ولم يسلم منهم سوى بضعة أشخاص لينعوا إلى بقية رجال الجيش مأساة المنصورة ..

أضحت المنصورة مقبرة لمقدمة الجيش الفرنسى .. ورويت أرضها الطيبة بدمائهم .. وانتشرت أنباء هذا النصر ، ورفعت الأعلام وأقيمت الزينات والأفراح فى كل مكان .. وأرسل القائد المصرى بطاقة فى أجنحة حمامة من حمام الزاجل ترف البشرى إلى العاصمة ، جاء فيها : « لم تمض ساعة وإذا بفلول الفرنج قد ولوا على أعقابهم منهزمين ، وأسود مصر لاكتاف خنازير الفرنج ملتزمين » ، فاستبشر الناس وقويت الروح المعنوية عندهم ..

• • •

وبينما كانت هذه المعركة تجرى حوادثها داخل مدينة المنصورة وبين أزقتها وشوارعها ، نشب قتال آخر فى البقعة الكائنة بين بحر آشمووم والمنصورة حيث يوجد المعسكر للمصرى .. وكانت هذه المعركة بين القسم

الثاني من الجيش الفرنسي الذي عبر القناة عن طريق المخاضة وعلى رأسه كونت انجو ، وبين القوات المصرية المتحفزة للفتك به .

هاجم المصريون أعداءهم ، ورموهم بالسهام والحراب ، وفتكوا بعدد كبير منهم ، وهرب بعض الفرنج إلى أحد المنازل المهجورة بضواحي المدينة للاختباء فيه من ضربات المصريين .. لكنهم عادوا فأطبقوا عليهم من كل جانب ، وأصابوا عدداً منهم بجراح بالغة ..

وبينا المعركة تدور رحاها ، أخذ ركن الدين يبيرس قائد الجيش ، درع كونت أرتوا ورداءه ، وقد لوثتهما الدماء ، ورفعها أمام جنوده قائلاً :

— هذا هو عدوكم .. هذا هو عدواقه قد مات ..

فعلا التهليل والتكبير ، وسرت الحماسة بين الجميع ..

وفي تلك الأثناء وصل لويس التاسع وبقية الفرسان إلى ميدان القتال جنوبي بحر أشموم .. ولم يكن الملك على علم بما منيت به الطليعة من هزيمة منكرة .. ولم يكن على علم كذلك بما أصاب شقيقه روبرت .. وتوقف هو وجيشه على تل مرتفع قبالة الضفة الشمالية . وكان غرضه من ذلك استكمال بناء الجسر من الواجهة الجنوبية ليعبر المشاة عليه .. ولكن توقفه لم يدم طويلاً .. إذ سرعان ما نشب قتال بين الفريقين أبدت فيه القوات المصرية مهارة فائقة .. فلم يكن العراك بقومئذ أو برمح ، إنما تقاتل الفريقان وجهاً لوجه ، حيث التحمت الأجساد واختلطت السيوف وعلا صليلها ، وانتشرت الدماء هنا وهناك .. وأبدى المصريون تفوقاً

على الصليبيين في فن القتال بالسيف ، وتمكنوا في آخر الأمر من التغلب عليهم ولحقاق الهزيمة بهم ..

ولإزاء هذه الهجمات الشديدة ، توقف الملك عن مواصلة السير نحو المنصورة ، واضطر إلى التراجع ثانية صوب الضفة الجنوبية لبحر أشموم هو ومن تبقى لمن فرسانه على قيد الحياة ، والساكنة المصرية في أترهم مكبدة لإبام خسائر جسيمة في الأرواح والعتاد .. وقد غرق عدد كبير منهم عند عبورهم القناة إلى الضفة الأخرى هرباً من جحيم المعركة .

وكان الحزن الشديد يملأ نفوس مشاة الصليبيين شمالى بحر أشموم وهم يشاهدون إخوانهم على الجانب الآخر يقعون صرعى تحت ضربات المصريين ، ويموتون غرقى في النهر عند محاولتهم الفرار . ولم يكن بوسعهم تقديم أى عون لهم والجسر لم يتم تشييده بعد .

كانت القوات الصليبية في مركز حرج وهى تعاني من هجمات فرسان المماليك ومشاتهم الشديدة المتكررة .. وزاد في خطورة الموقف أن المشاة وحمة القسى الفرنسيين . كانوا على الضفة الشمالية لبحر أشموم مع دوق برجنديا ، ولم يكن يمكنهم تقديم أى عون لزملائهم .

وبينما الفرنسيون فى مأزقهم هذا لا يجدون منه مخرجاً ، إذ جاء أحد فرسان الداوية الذين نجوا من واقعة المنصورة فأسر إلى لويس بموت أخيه كونت أرتوا .. فبدأ عليه التأثير الشديد لفقدته حتى دمعت عيناه وغلبه البكاء .

كان الملك لويس وفرسانه على شفا هاوية لحاجته إلى معونة مشاته

ورماة سهامه المقيمين على الضفة المقابلة ، بعد أن مات جميع حملة القسي من الفرسان مع كونت أرتوا داخل المنصورة . وكان من حسن حظه أن أقام الفرنج في ذلك الحين جسراً من السفن عبر عليه رماة السهام والمشاة لنجدة الملك وجيشه . . ولولا ذلك للحق الملك بأخيه ولأصبح في خبر كان . . ولكن القدر كان يدخر له ما هو أشد من هذا وأتمنى .

وهكذا انتهت معارك يوم الثلاثاء داخل المنصورة وفي ضواحيها ، وقد استمرت منذ الصباح الباكر حتى المساء ، دون أن يتوقف القتال فيها لحظة واحدة . . انتهت بغلبة المصريين واندحار الفرنسيين بعد أن فقدوا زهرة فرسانهم وخيرة رجالهم في شوارع المدينة وأزقتها بين قتيل وأسير وجريح .. انتهى هذا اليوم بالنسبة للفرنج في جومشيع بالأسى والكتابة والأحزان ، أما مصر فقد خرجت مرفوعة الرأس ، مشرقة الجبين ، موفورة الكرامة .. لقد أحيا أبناؤها في ذلك اليوم مجد العروبة والإسلام من جديد .

وكانت موقعة الثلاثاء بحق ، أول النصر ومفتاح الظفر ، .

## موقعة يوم الجمعة

قضى المصريون ليلتهم فرحين مهتللين بعد انتصارهم على الغزاة في موقعة يوم الثلاثاء . وفي صليحة اليوم التالى عقد الأمير بيبرس قائم الجيش مجلساً من مستشاريه تقرر فيه القيام بهجوم شامل كبير للقضاء على بقية الجيش الصليبي في يوم الجمعة الحادى عشر من فبراير ، وهو اليوم الذى أحبه المصريون وأحبوا الجهاد فيه مثلاً فعل صلاح الدين قاهر الصليبيين .. وقد علم الفرنج بأمر هذا الهجوم من رجالهم وعيونهم الذين كانوا يثبونهم هنا وهناك ..

وبادر كل من الفريقين إلى تنظيم قواته وإعداد العدة لهذا الهجوم المنتظر .. ومن يدرى لعله الهجوم الأخير .. وهكذا بعد أن كان الفرنج هم البادئين بالهجوم في وقعة المنصورة الأولى ، تغيرت الظروف وأصبحوا في موقف الدفاع عن أنفسهم ضد الهجوم المصرى في المعركة الثانية ..

لم يكن لدى ملك الفرنسيين الوقت الكافى للبكاء على موته ، فقد كانت الظروف تحتم عليه أن يعد العدة لما قد يجد في الأيام القليلة المقبلة التى بات من المتوقع أن تكون أياماً قاسية وحاسمة في نفس الوقت .. لنا أسرع بإعادة تنسيق قواته ، فجعلها في إحدى عشرة فرقة انتظمت عشر منها على طول الضفة الجنوبية لبحر أشموم في مواجهة المعسكر المصرى ، بينما كانت الفرقة الحادية عشرة توجد على الضفة المقابلة .. وأمر لويس

فرسانه أن يقاتلوا وهم مترجلون حتى يتمكنهم صد نهجات المصريين ..  
ولعله أقدم على ذلك بسبب فناء معظم فرسانه في الموقعة الأولى ..

وكان موقف الفرنسيين هنالك يكتنفه الدقة والخطورة .. فقد كانت  
تحوطهم من خلفهم وعلى جانبيهم أنهار وترع ضيقة سريعة الجريان ..  
وكان أمامهم المصريون يحافظهم الحرارة .. فلم يكن لهم من سبيل إلى  
الاتصال بمعسكرهم في الضفة الشمالية لبحر أشموم إلا جسر خشبي صغير ..  
ثم إن جيشهم ولو أن جناحه الأيسر كانت تحميه بعض الشيء فرقة حملة  
القسمى المرابطة على الضفة الشمالية بقيادة دوق برجنديا ، إلا أن الجناح  
الأيمن كان مكشوقاً تماماً أمام القوات المصرية التي كانت تهدده بكثرتها  
ونفوقها في العدة والعدد ..

وفي الجانب الآخر وضع بييرس بطل موقعة المنصورة الأولى خطة  
الهجوم التي تدل على مهارته في تدبير الخدع والحيل والتكتيكات الحربية  
الموقفة .. إذ قسم جيشه إلى ثلاثة أقسام : مقدمة وقلب ومؤخرة ..  
ففي المقدمة انتظم تجاه الفرنج ما يقرب من أربعة آلاف من فرسان  
الممالك بكامل عدتهم وسلاحهم ، ومن خلفهم عسكر مشاتهم .. وفي  
المؤخرة اصطفت جيوش أخرى هائلة لمساعدة الفرسان والمشاة إذا  
اقتضت الضرورة ذلك ..

وكان هذا الجيش الذي احتفظت به مصر في العهد الأيوبي جيشاً  
مدرباً أحسن تدريب ، صناعته الحرب والقتال ، كما كان مجهزاً بكل  
ما أنتجه ذلك العصر من أسلحة ومعدات ، حتى لقد اعتبر من أفضل  
جيوش العصر الوسيط في الشرق والغرب لإعداداً وقوة وتنظيماً ..



ولما انتهى القائد المصرى من تنظيم قواته وترتيب صفوفها وأماكتها ، تقدم بمفرده على ظهر جواده وسرح البصر فى صفوف الأعداء وفرقهم .. فكان يأمر بزيادة جنده حيث يرى جندهم أكثر عدداً ، وإبقائها كما هى فى الأماكن التى يراهم فيها أقل قوة ..

ولكى تصح الخطة سديدة محكمة أصدر أوامره إلى العرب وعامة الشعب ، بعبور بحر أشموم وشن الغارات على المعسكر الفرنسى شمالى هذا النهر لمرقلة نشاط فرقة مشاة الصليبيين الموجودة هناك ، وعدم إتاحة الفرصة لها لمعاونة الفرق الأخرى على الضفة المقابلة .

° ° °

« أَلَا إِنَّ تَصَرَ اللَّهُ قَرِيبٌ » .

وما إن انتصف نهار يوم الجمعة حتى بدأت المعركة .. فاندفع فرسان المسلمين ومشاتهم بأعدادهم الهائلة وآلاتهم الحربية صوب الفرق الفرنسية من جميع الجهات ، وتقلت فرسانهم فى ساحة الميدان بنظام دقيق وتشكيلات رائعة ..

وكانت أول فرقة اشتبك معها المصريون هى فرقة شارل كوت انجو .. فاندفع مشاتهم نحو الكونت الذى كان واقفاً على قدميه ؛ ورموه بالنار الإغريقية ، ثم انقض فرسانهم عليه وأنزلوا به وبرجاله هزيمة شديدة .. إلا أن شارل نفسه تمكن من الفرار بعد أن أصيبت فرقته بضربة قاسية ..

واصطفت إلى جانبها فرقة أخرى بقيادة وليم دى سوناك رئيس جماعة الداوية، وكان قد دخل المعركة بمن بقي من رجاله على قيد الحياة بعد موقعة الثلاثاء .. ولما كان مدركاً ضعفها، فقد أقام أمام معسكره حاجزاً من المتاريس .. ولكن هذا لم يجد فتيلاً، فقد أحرقه المصريون بنيرانهم، وأطبقوا على رماة الفرقة في شدة وعنف، وسرعان ما قضوا عليهم .. وكان قائدها وليم قد فقد إحدى عينيه في معركة يوم الثلاثاء، ثم فقد في هذه المعركة عينه الثانية .. وفي النهاية سقط قتيلاً متأثراً بجراحه .. ولم تقم لفرقته بعد ذلك قائمة ..

أما فرقة جى دى موفوزان فلم يتمكن المصريون من اختراق صفوفها على الرغم من أنهم أصلوها قائدها بنيرانهم التي أخذت بعد صعوبة كبيرة ..

وتلها فرقة جان دى جوانفيل الصديق الحميم للملك الفرنسي وصاحب المذكرات الفريدة في بابها عن تاريخ حياة مليكه ومآسي الهزيمة التي فرضها المصريون على الفرنج .. وفرقة جوانفيل هذه لم تشارك في القتال اشتراكاً جدياً .. ولم يهاجمها المصريون لأنها لم تكن في مواجهةهم مباشرة، إذ كانت خلف فرقة أمير الأراضي الواطئة ..

وقد شن فرسان المصريين ومشاتهم هجوماً شديداً على فرقة وليم أمير الأراضي الواطئة، وكادوا يلحقون بها الهزيمة لولا أن أسرع لمساعدتها بعض الفرنج من الفرق الأخرى ..

أما فرقة ألفونس كونت بواتيه أحد أشقاء لويس فكانت تتكون من المشاة إلا الكونت نفسه الذي كان معتلياً جواده .. وقد فتك بها

المصريون أيضاً ، وتمكن رئيسها من الهرب والعودة سالماً إلى المعسكر الفرنسي ..

والفرقة التالية لفرقة الكونت دي بواتيه كان على رأسها جوسران دي برانسيون وتكون من المشاة .. وقد نفذت القوات المصرية بين صفوفها ، وأوشكت أن تليدها عن آخرها لولا أن أدركها رجال الفرقة التي كانت تقيم على الضفة الشمالية لبحر أشموم الذين أخذوا في تصويب سهامهم إلى المصريين عبر القناسة ، فألقوا بعض أفرادها ، ولم أن دي برانسيون نفسه سقط قتيلاً هو وجانب من رجاله .

وهكذا ظلت القوات المصرية توجه ضرباتها إلى فرق الصليبيين ، وتقذفهم بنيرانها حتى فدحت خسائر العدو في الرجال والسلاح ..

وفي تلك الأثناء كان عامة الشعب والعرب يناوشون مشاة الفرنسيين المقيمين على الضفة الشمالية لقناة أشموم ، ويقذفونهم بكل ما يصل إلى أيديهم ، ليحولوا بينهم وبين مد يد العون إلى الفرق الأخرى على الشاطئ المقابل .. فأتاحوا بذلك الفرصة للجيش المصري ليجول ويصول بين فرق الصليبيين المصطفة أمامه ..

وكانت معركة يوم الجمعة هذه من أشد المعارك وأعنفها في تاريخ الحركة الصليبية وفي تاريخ كفاح العروبة ضد الاستعمار .. وهي تعتبر مثلاً حياً على براعة المصريين في إحكام الخلط الحربية وتنفيذها .. ففيها تغلبت قواتهم على معظم الفرق التي كان يتكون منها جيش الفرنجة .. وفيها فقد الفرنسيون عدداً لا يستهان به من فرسانهم ومشاتهم ، وحطم

المصريون معظم معداتهم وعسادهم ، مما أضعف قواهم وأسهم في التعجيل  
بنهايتهم . . . وهي نهاية خزي وعار سجلها التاريخ على صفحاته . . .  
كان هذا نصراً جديداً يضاف إلى سلسلة انتصارات المصريين . . .  
وهزيمة أخرى تضاف إلى هزائم الفرنج المعتدين . . .

## الوباء يتفشى في المعسكر الفرنسى

بعد هاتين المعركتين توقف المصريون عن القتال تاركين الفرنسيين في أخطر المواقف وأحرجها .. وأدرك الفرنج أن معاودة الهجوم على المنصورة تكاد تكون مستحيلة ، وأن بقاءهم في أماكنهم معناه هلاك محقق لهم .. وكان كل يوم يمر عليهم وهم في هذه الحالة يزيد مركزهم دقة وصعوبة .. لقد بلغوا درجة من الضعف لم تمكنهم من مواصلة القتال ..

وما هى إلا أيام بعد معارك اليومين المذكورين حتى تفشى الوباء في معسكرهم .. ولم يجدوا وسيلة للتخلص من جثث موتاهم إلا أن يلقيوها في النيل والقناة .. غير أن هذه الجثث بدأت تطفو على وجه الماء ، كما تراكت على الجسر الخشبي الذى شيده الفرنسيون على بحر أشموم ، وبلغ من كثرتها أنها غطت سطحه .. ولم يسع الملك المسكين في آخر الأمر إلا أن يستخدم عدداً من رجاله لانتشال الجثث من النهر ودفنها في باطن الأرض ..

وبلغ من شدة الوباء أن أصيب به معظم رجال الجيش ، حتى أن لويس نفسه لم يسلم من المرض الذى أدناه من الموت ..

وأخذ حالهم يزداد سوءاً ، إذ يبست سيقانهم حتى لم يعد يظهر منها سوى عظام بارزة .. وظهرت على أرجلهم بقع سوداء في لون التراب .. وأصاب العفن مواضع شتى من أجسامهم .. وكان إذا أصيب أى فرد بنزيف في أنفه دل ذلك على دنو أجله ..

وكان يموت كل يوم ما بين عشرين وثلاثين محارباً .. وصار كل فرد  
يتربص هذا المصير الرهيب بين لحظة وأخرى .. ولم يكن يوجد في  
معسكرهم من لا يبكي موت زميل أو قريب له .. حتى دواهم فقد لحقها  
الدماء ونفق معقلها !

## توران شاه يصل إلى المنصورة

وفي تلك الأثناء التي رجحت فيها كفة النصر نحو الجانب المصرى ، بينما كان الجيش الفرنسى يعانى الأمرين من نقصان فى العدد إلى تفشى الأوبئة والأمراض فى معسكره . . قدم المعظم توران شاه بن السلطان الراحل الصالح أيوب . . وكان وصوله إلى المنصورة فى الخامس والعشرين من فبراير ، أى فى اليوم الرابع عشر بعد موقعة الجمعة الشهيرة .

وفى الحال نودى به سلطاناً على مصر ، وأعلن رسمياً وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب . . وقد ضاعف مقدمه من شجاعة المصريين وحماستهم ، والتفوا حوله للجهاد ضد العدو ودفعه عن البلاد . .

ودبر توران شاه بمجرد وصوله خطة يسدد بها الضربة القاضية إلى الجيش الفرنسى . . إذ لجأ إلى نفس الحيلة التى لجأ إليها المصريون فى عهد جده الملك الكامل محمد عند ما نزلت فى نفس المكان جيوش الصليبيين بقيادة جان دى برين . .

لقد كان الاتصال حتى ذلك الوقت بين دمياط والمعسكر الفرنجى جنوبى بحر أشموم غير مقطوع ، إذ كانت السفن الفرنسية تجلب المؤن والإمدادات من دمياط ، إلى المعسكر عن طريق النيل . . ومن ثم أمر السلطان الجديد بصنع عدة مراكب حلت مفككة على الجمال عند سمند ، ونقلت عن طريق البر إلى بحر المحلة . . وهناك أعيد تركيبها

وأُنزلت إلى بحر المحلة خلف المعسكر الفرنسى بعد أن تم تزويدها بالمحاريب .. وكان الغرض من ذلك عرقلة الغزاة بأسطولهم ..

وبحر المحلة هذا الذى تستر فيه أسطول المصريين لاصطياد سفن العدو ، يخرج من فرع مليج عند قرية ضيا الكوم بالقرب من طنطا ويمر بقرية الهيثم ثم ببلقينة فالمحلة الكبرى إلى أن يتصل بالنيل عند شاربم ساح ..

وقد نجح المصريون فى خطتهم نجاحاً باهراً .. ولا غرو ، فقد كان لهذه الخطة الفضل فيما نزل بالصليبيين المقيمين جنوبى بحر أشموم من كوارث ومحن من الآن فصاعداً ..

لقد حالت هذه السفن بين مراكب الفرنج الآتية من دمياط وبين الوصول إلى معسكرهم عند المنصورة . فقد كنت فى حنأ متربصة للقافلة التى تحمل المؤن للصليبيين عبر النهر .. وحدث أن عدة من مراكزهم كانت قادمة من دمياط ، فلما اقتربت من فم بحر المحلة ، باغتها المراكب المصرية المستترة فى هذا البحر ، بينما أطبق عليها أسطول المصريين من جهة المنصورة ، وانهمز أسطول الفرنج فى هذه المعركة ، وأخذ المصريون اثنتين وخمسين سفينة من سفنه ، واستولوا على كل ما فيها من زاد ومعدات . كما ذهب قرابة ألف فرنسى بين قتيل وأسير ، واقتيد الأسرى على الجبال إلى القاهرة .. وكان دخولهم فيها يوماً مشهوداً حيث زج بهم فى غياهب السجون ، وعلقت رموس قتلاهم على أبواب العاصمة .. فكان هذا مما ضاعف سرور المصريين وملاهم ثقة واعتزازاً ..

واشتد القتال بين الفريقين .. فى السابع من شهر مارس نشبت



معركة بحرية ثانية استولى فيها المصريون على سبع سفن للعدو، وتمكن من كان فيها من الهرب والنجاة بأنفسهم .. وفي منتصف هذا الشهر اشتبكت السفن المصرية والفرنسية في معركة أخرى انتهت بأخذ المصريين اثنتين وثلاثين من سفن الأعداء ..

وهكذا تعددت المعارك البحرية بين الأسطولين المصري والفرنسي التي انتهت باستيلاء المصريين على كثير من سفن الأعداء .. وكانت كل سفينة تذهب لإحضار المؤن للفرنج من دمياط لا تعود أبداً .. ولم يكن الفرنج بدمياط يتصورون أن يحدث هذا حتى أفلتت إحدى سفنهم من رقابة الأسطول المصري ووصلت إليهم وأخبرتهم بتلك الحطة التي دبرها المصريون لمنع الأزواد من الوصول إلى الفرنسيين ..

وكانت النتيجة أن نفذت مئونة الفرنج وهددت المجاعة معسكرهم جنوبي بحراًشوم، ودب ديب اليأس في نفوسهم بعد أن أفلح المصريون في قطع الطريق عليهم ومنع الأزواد من الوصول إليهم .. وصاروا محصورين بين شقي الرحى .. وارتفعت أسعار الحاجات ارتفاعاً فاحشاً، حتى أنهم باتوا يأكلون بنهم زائد لحوم الخيل والبغال التي كانت معهم .. وعندما أتوا عليها أكلوا من جثث الحيوانات التي ماتت من الجوع أو المرض .. واتخذوا من الحشائش والأعشاب طعاماً لهم ..

وفت ذلك كله في عضد الفرنسيين، فطلب إليهم فتح باب المفاوضات مع المصريين، وأرسل يطلب الصلح وإيقاف القتال، وهو يعلم جيداً الشدائد التي تقاسيها قواته .. وكان يمثل الفرنج أحد فرسانهم ويسمى جوفروا دى سارجين، وينوب عن مصر قاضى القضاة

بدر الدين السنجارى .. وقد عرض رسول لويس شروطا لم تكن معقولة وهو فى مثل موقفه ، ولا مناسبة للظروف البصبة المحيطة به . إذ اشترط فى نظير إعادته دمياط للبصريين ومغادرته للبلاد ، أن يتنازل لهم السلطان عن بعض المدن الساحلية فى فلسطين . وقد قبلت عروض الملك الفرنسى بالرفض التام من جانب المسلمين الذين كانوا يعلمون حق العلم ما يكتنف جيوش الأعداء من الضائقات . والذين كانوا فى موقف يسمح لهم بإملاء إرادتهم على الفرنج .. وهكذا انقطعت المفاوضات دون الوصول إلى أية نتيجة .

## مذبحة فارسكور

تلك هي الحال التي أصبح عليها الفرنسيون في الوقت الذي رفضت فيه مصر شروطهم للصلح ومغادرة البلاد : وباء ينخر في عظامهم ، وبجاعة تفتك بهم أحياء ، ونقص متزايد في أعدادهم ومعددهم .. وشعب واقف لهم بالمرصاد .. كل ذلك خلق فيهم اضطراباً نفسياً شديداً ، وأفقدهم الكثير من الروح المعنوية وهي أهم سلاح للحارب ، مما سبب تشيظاً لهممهم وخللاً في صفوفهم .

كان أولئك القوم في موقف لا يحسدون عليه ، وأخذت حالتهم تزداد سوءاً . كلما تقدمت بهم الأيام . ولو غالبوا كل تلك الكوارث وعزموا على معاودة القتال ، لتحطمت عزيمتهم أمام جيش قوى بوسعه القضاء عليهم ، وشعب مؤمن مصمم على النضال إلى النهاية .. ولم يكن أمامهم إلا أحد أمرين كلاهما مر : إما أن يبقوا في مراكزهم التي هم فيها جنوبي بحر أشموم وفي هذا نهايتهم .. وإما أن يعودوا أدراجهم من حيث أتوا عليهم ينجون بأنفسهم بما نزل بهم .

وفي الحال عقد لويس مجلساً من كبار رجاله للتداول في الأمر . :  
وبدأ كوثت بواتييه الحديث قائلاً :

— لقد أطبق المصريون علينا من كل جانب ، بعد أن أفلحوا في استدراجنا إلى داخل البلاد ليسهل عليهم الفتك بنا .  
وأضاف جان دي جوفانيل :

— وها نحن أولاء يامولاي نجني ثمار تهورنا في بلاد غريبة عنا ..  
فالبحر أمامنا .. وجيش المصريين من خلفنا .. والهلاك مصيرنا .. ولقد عمت  
المجاعة معسكرنا ، وتفشى الوباء بين رجالنا .. والموت يطل بشبحه علينا .

ثم أخذ يوجه الحديث إلى الحاضرين :

— أيها السادة .. لأنني أخشى سوء العاقبة وشر المصير .. وخير لنا أن  
نتراجع من حيث أتينا بمن تبقى من رجالنا ، بدلا من أن نفنى جميعاً على  
ضفاف النيل وتحت شمس المحرقة .

ولكن شارل كوت أنجو ، الذي لم تفارقه أطباعه ، قاطعه قائلاً :

— لا .. لن تراجع .. بل أرى البقاء في مراكزنا ومواصلة القتال .

ولم يتمالك جوافيل نفسه فقال في حدة وغضب :

— ماهذا الذي تقول ياشارل ؟ إنها المحاقة بعينها ! إنه لا قبلَ لنا  
بملافة أهل هذه البلاد وجنودها ، الذين رشقونا بأسنة رماحهم ،  
ورمونا بسهامهم ، وأعملوا فينا سيوفهم ، وأصلونا نيرانهم ونفطهم .  
أراك يا صديقي الكونت تركب رأسك في قضية خاسرة ، وأنت ترى  
بعينيك خيرة رجالنا وهم يسقطون صرعى تحت ضربات المصريين ..  
يجب أن تبادر بالانسحاب قبل أن يستفحل الأمر ويصبح من المتعذر  
علاج الموقف .

كان لويس يستمع إلى ما يدور حوله دون أن ينبس بكلمة واحدة ..  
وفي آخر الأمر أنهى الاجتماع معلناً قراره بالانسحاب إلى مدينة دمياط  
عساه يستطيع إنقاذه ما يمكن إنقاذه في هذه المحنة . وما كانوا يدرون

أنهم سوف يلاقون في هذا الانسحاب أكبر كارثة منيت بها حملة في تاريخ الحركة الصليبية كلها .  
لقد جاء هذا القرار متأخراً جداً .



أصدر الملك الفرنسي أوامره إلى الفرنسيين الموجودين جنوبي بحر أشموم بالانتقال إلى المعسكر القائم على الضفة المقابلة . وحيث يمكن القوات الصليبية متجمعة التراجع إلى دمياط في السفن عن طريق النيل وفي البر بمحاذاة الشاطئ ..

وكانت مهمة الانسحاب من الضفة الجنوبية إلى الضفة الأخرى صعبة دقيقة بسبب الهجمات الشديدة التي قامت بها القوات المصرية يشد أزرها الشعب الباسل .

وبعد أن تم الانسحاب إلى الضفة الشمالية لبحر أشموم ، أعد الفرنج العدة للتراجع العام إلى دمياط والاحتكام بها ضد المصريين . ففي مستهل أبريل بدأوا في جمع مرضاهم وجرحاهم على الشاطئ لنقلهم إلى دمياط في السفن الباقية لهم بعد المعارك البحرية التي اشتبكوا فيها مع الأسطول المصري ..

وفي مساء الثلاثاء الخامس من نفس الشهر ، وكان الليل قد أرخى سدوله وساد المنطقة سكوت موحش ، بدأت عملية التراجع .. ولم تكن هذه العملية بالأمر الهين السهل .

تحرك الصليبيون من مشاة وفرسان متجهين نحو الشمال إلى قاعدتهم في دمياط .. فسار القادرون منهم بمحاذاة الشاطئ " الأيمن للفرع الشرقى للنيل ، بينما انحدرت سفنهم قبالتهم في النيل تقل المرضى والجرحى والعاجزين . وتركوا وراءهم أكواماً مكدسة من الخيام والأسلحة والأطعمة غنيمة باردة للقوات المصرية .

كانوا في عجلة خشية أن تقتنى قوات بيبرس آثارهم وتجهز عليهم ، ففسوا تحطيم الجسر الذى عبروا به بحر أشموم عند التراجع . وهكذا قدموا للمصريين ممرأً يجتازونه في أعقابهم ، ويقضون على البقية الباقية منهم .

وقد كان . فإ إن أبصرت القوات المصرية الظافرة الفرنج يتحركون شمالا حتى عبرت الجسر إلى الضفة الشمالية لبحر أشموم .. وسارت في أعقاب الجيش المنسحب مكبدة إياه خسائر فادحة في الأرواح .

وهكذا استمر القتال بين الطرفين . وطالت المطاردة طوال ليل الثلاثاء إلى صباح الأربعاء حتى وصلا إلى قرية فارسكور .

هناك كانت خاتمة المظاف والكارثة الأخيرة . ففي هذه البلدة وقعت ملحمة دموية من فيها الفرنسيون بضربة قاسية .. إذ انهالت عليهم القوات المصرية وتعقبت آثارهم ، وألحقت في مضايقتهم حتى التفت على صفوفهم وأطبقت عليهم .. ثم أعملت فيهم سيوفها وأخذت ترشقهم بسهامها ورماحها .

وقد كان يوماً مشهوداً من أيام المقاومة ضد الحركة الصليبية ، خسر فيه الفرنج خسارة كبيرة في الأرواح بلغت بضعة آلاف .. كما أسر عدد لا يستهان به من مشاتهم وفرسانهم وصناعهم . هذا عدا ما غنمه المسلمون من الذخيرة والخيول والعنادر .. ولم يستشهد من القوات الإسلامية سوى مائة بعد أن أبلوا أحسن بلاء .

## لويس يقع في الأسر

ولإزاء هذه الكارثة التي حلت بالجيش الفرنسى تخلف لويس عن فرقته بعد أن هلك معظم رجالها ، وانضم إلى مؤخرة الجيش الهارب .. وواصل سيره ممتطياً جواداً صغيراً حتى بلغ هو ومن معه قرية تدعى منية أبي عبد الله ، تقع على الشاطئ الشرقى لفرع دمياط فيما بين شارمساح وفارسكور ، وهي التي تعرف اليوم باسم ميت الخولى عبد الله .. قرية صغيرة لها شأن كبير في تاريخ هذه الحملة ..

وعبثاً حاولت المؤخرة الدفاع عن الملك ضد المصريين الذين أحاطوا به من كل جانب .. وبلغ الإعياء به مبلغاً شديداً ، حتى أنه بات من المستحيل مواصلة الهرب بعد ذلك .. فحمله من معه إلى منزل بهذه الجهة ، وهو في شبه غيبوبة ، وأحاطوا بالمنزل للدفاع عنه ضد ضربات المصريين ..

وعند ما ثاب لويس إلى رشده أوفد أحد كبار قواده إلى المصريين في طلب الصلح وإيقاف القتال مقابل إخلاء دمياط والموافقة على عروضهم التي يتقدمون بها .. ولكن مصر رفضت الدخول معهم في مفاوضات والنصر الأخير تلوح بواده ..

وازداد الضغط على لويس ، فلم تجد البقايا الهزيلة من الجيش الفرنسى بداً من التسليم .. فرفع الجميع راية الاستسلام في يوم الأربعاء السادس





لويس التاسع يقع أسيراً في قبضة المصريين

من إبريل ، رغبة منهم في إنقاذ حياة مليكهم ، وهرباً من البلى  
المتلاحقة التي ألمت بهم ..

وفي الحال أحرق المصريون بالملك الفرنسي ومن معه من الفرسان ،  
فطلب منهم الأمان .. فحضر إليه أحد الطواشي ويدعى جمال الدين  
محسن الصالحى ، وأمنه على حياته .. لكن بعض الفرعج الذين كانوا  
معه عز عليهم أن يروه أسيراً مكبلاً ، وأرادوا تخليصه منهم ، فأحاط بهم

المسلون ، واشتدوا في قتالهم حتى أبادوهم عن آخرهم ، ثم ألقوا القبض على لويس واقتادوه أسيراً ..

وأما الفرنسيون الذين تراجعوا في السفن عن طريق النيل ، فلم يكن مصيرهم بأحسن من أولئك الذين هربوا عن طريق البر .. إذ كانت السفن والقوات المصرية متربصة لهم ، حتى أنه لم تفلت سفينة فرنسية واحدة من رقابتها اليقظة .. وأخذت البحرية المصرية تمطر الأعداء وابلا من السهام والرماح ، كإرمتهم بالنيران الإغريقية .. ولم ينج أحد ممن كان في سفنهم ، ووقعوا جميعاً بين قنيل وأسير وجريح .. والسفينة الوحيدة التي تمكنت من الإفلات من بين سفن المصريين ووصلت سالمة إلى دمياط هي تلك التي كان على ظهرها القاصد الرسولي للحملة .. وصلت لتزوى ما نزل بالجيش الفرنسي المقهور من محن وويلات ..

\* \* \*

كانت مارجریت منذ غادر زوجها دمياط حتى هذه اللحظة تتلقى اليسير من الأخبار عنه .. وكانت في شغف لسماع أنباء جديدة عن رجلها عند وصول القاصد الرسولي .. ومن ملامح القاصد بدا واضحاً أن الخطب جسيم .. وكانت كلماته لها تبعث على الشجن .. أخذ يقص عليها ما حل بلويس ورجاله في المنصورة وأثناء الارتداد ، إلى أن انتهى الأمر بوقوعه أسيراً في قبضة المصريين .. فلم تهلك نفسها واغرورقت عيناها بالدموع .. وظلت طوال الليل تبكي حظها العاثر وزوجها الأسير .. ولكن ما فائدة الدموع وقد وقع الخطب .. وكان بודהا ، بل كانت تمنى ، أن تلقى بنفسها بين أيدي المصريين لتقع أسيرة بجوار زوجها

ولتشاركه محنته وتخفف الامة .. ولكنها تذكرت الجنين الذى يلعب فى أحشائها وقد قاربت ساعة الوضع .. إذ لم تمض أيام حتى جاءت بمولودها يوحنا الذى اشتهر باسم يوحنا الحزين لولادته فى مثل هذا الظرف العصيب ..

وشاء سوء الطالع أن يقرر بحارة الحملة الذين بقوا بدمياط مع الملكة لحراستها عند ما تقدم الجيش الفرنسى جنوباً صوب العاصمة ، شاء سوء الطالع أن يقرر هؤلاء البحارة يوم يحىء المولود الإضراب طالبين العودة إلى بلادهم ، متعللين بنفاد مؤنهم .. ولكن الواقع كان خلاف ذلك .. فهم كانوا يخشون أن يحل بهم من الكوارث ما حل برجال الحملة وقد أتهم أبائهما .. ولم تجد الملكة بدأ من العمل على إقناعهم بالعدول عن مفادرة دمياط فى هذه الآونة الحرجة .. وقامت بمدحهم بالمؤن من نفقتها الخاصة ، رغم ما تعلم عن جشعهم وتغلب الصفة التجارية عليهم .. وذلك كان شعور الملكة نحو زوجها الذى شاركته أقصى أيامه .. فقد كان يوسعها البقاء فى فرنسا لتتوب عنه فى حكم البلاد وتتولى أعمال السلطنة .. ولكنها آثرت أن تبقى إلى جانبه أثناء هذه المحاولة ، وأن تشاركه حلوها ومرها .. وقد دلت بتصرفها الأخير مع هؤلاء الرجال على بعد فظرها .. فهى تعلم جيداً أنه لو وقعت دمياط فى قبضة المصريين والملك لا يزال فى الأسر ، فهو هالك لا محالة ..

\*\*\*

تلك هى قصة الملكة مارجريت فى دمياط ، أما زوجها الأسير ورجاله فقد نقلهم المصريون إلى المنصورة .. فأزولوا الملك لويس فى سفينة

كبيرة ، وأحدثت به السفن المصرية التي كانت تصدر بمائتي قطعة ، وهي تدق الطبول وتنفخ في الأبواق ابتهاجاً بهذا النصر .. بينما قيد باقي الأسرى بالجبال واقتادهم الغلمان بأيديهم وهم في نشوة وابتهاج .. وكانت القوات المصرية المظفرة تسير بمحاذاة الشاطئ الشرقي لفرع دمياط .. وفي الجانب الغربي كان عامة الشعب وأهل البدو يرقصون على خيولهم في زهو حقيق وفرح بالغ .. وهكذا واصل موكب الأسرى السير حتى بلغ مدينة المنصورة ..

وفي الحال اعتقلت السلطات المصرية لويس التاسع وشقيقه كونت انجو وكونت بواتيه في دار القضاة غفر الدين بن لقمان بجوار جامع الشيخ الموافي القائم في وسط المدينة . وهذه الدار لا تزال معروفة بالمنصورة ، وما زالت آثارها شاخصة حتى يومنا هذا تروى قصص البطولة والكفاح .. وهناك قيد ملك الفرنسيين بالسلاسل ووضع تحت حراسة الطواشي ، صليح المعظمي ، الشديدة .. وصليح هذا من أتباع المعظم توران شاه الذين جلبهم معه من حصن كيفا ، وأنتم عليه بالاقطاعات الكبيرة والأموال الوفيرة ..

وكانت الحجرة التي اعتقل فيها لويس تقع في الطابق الأرضي من الدار ، وهي مظلمة ، متوسطة الحجم لا يزيد اتساعها على أربعة أمتار مربعة ، وجدرانها مبنية من اللبن الأسود ، ويصلها بالشارع باب واحد . كان بوسع المصريين الانتقام من أسيرهم لما اقترفه من آثام في حق بلادهم .. ولكنهم مع ذلك أكرموا ، وأقاموا عنده من يقوم بخدمته ، ورتبوا له كل ما يحتاج إليه من مأكل ومشرب . إذ كان من جميل

عادتهم أن الأسير إذا أكل أو شرب من مال من أسره ، أصبح في مأمن من أن يصيبه أذى أو مكروه ..

و ذات يوم بعث توران شاه إلى لويس وإلى كبار الفرنج الذين في أسره خطماً نفيسة ، كما دعاهم إلى حضور حفلة كبيرة أقامها ابتهاجاً بالنصر ولكن الملك الأسير اعتذر من عدم قبول الحفلة وحضور المأدبة خشية أن تتمن كرامته على مرأى من الجميع ..

ولقد أشاد أحد المحاربين الفرنسيين وهو جوافيل الذى اشترك في الحلة وكتب عنها ، بما كانت تنطوى عليه نفوس المصريين من نبيل أصيل ، وكرم في الأخلاق ، وحسن في المعاملة .. فن مظاهر الشفقة في معاملتهم لأسراهم من الفرنج ، ما حدث لجوافيل نفسه عند ما وقع أسيراً في قبضتهم .. فقد كان على ظهر سفينة متخذاً طريقه إلى دمياط خلال التراجع ، عند ما هبت عاصفة شديدة قذفت به إلى الماء قريباً من إحدى قطع الأسطول المصرى ، وأيقن أنه هالك لا محالة .. ولكن عند ما شاهده المصريون الذين كانوا على ظهر سفينتهم ، ألقوا إليه حبالاً ربط نفسه فيه وانتشلوه وكان قد أوشك على الغرق ، ولم يكتفوا بذلك ، بل أحسنوا معاملته وخدموا له جراحه ..

كانت هذه هي رحمة القوى الغالب ، وعفو المعتد المتساع .. وكانت هذه طبيعة فيهم .. وتروى كتب التاريخ الشيء الكثير عن ذلك .. ولعل لويس ورجاله قد تذكروا في فترة الأسر البطل العربى صلاح الدين ، ذلك الرجل الطيب الذى رأى أسلافهم من كرمه ونبيل أخلاقه ما رفعه في أعينهم وأجبرهم على احترامه ، والذى أعطى أعداءه

من الفرنج دروساً في الشهامة والشرف والمروءة .. فعند ما طرد صلاح الدين الصليبيين من بيت المقدس ، اقتدى بعض أسراهم من ماله الخاص ، وأطلق سراحهم ، وسمح لهم بمغادرة المدينة بما يحملونه من مال ومتاع بعد أن ضمن لهم سلامة الرحيل .. وكان يأمر رجاله بمعالجة مرضى أعدائه ، ولإسعاف جرحاهم ، والعناية بأسراهم .. وفي ذات يوم أدخل صلاح الدين سبيلاً إحدى أسيراته هي وطفلاً ، فتوجهت إلى مدينة طرابلس وكانت إمارة فرنجية ، ولكن ملكها الفرنجي لم يحرمها من كرم الضيافة خشب ، بل سلب مالها وأغلق أبواب المدينة في وجهها ، حتى بلغها اليأس أن ألقت بابنها الصغير في اليم وهي تلعن بني جنسها الذين رفضوا مساعدتها .

ولم ينس الملك الأسير كذلك قصة الطفل الفرنجي الرضيع الذي أخذه العرب ذات ليلة من أعدائهم خلال الحملة الصليبية الثالثة ، وعندما اكتشفت أمه ذلك جن جنونها وأشار عليها كبار قومها بالتوجه إلى صلاح الدين ، ورجائه في أن يعطيها طفلها لما عرف عنه من العطف والكرم . فذهبت إليه وروت له قصتها ، فتأثر حتى دمت عيناه ، وأمر رجاله بإحضار الطفل ، فوجدوه قد يبيع في السوق . فارتد وأمر بدفع ثمنه إلى المشتري وأخذه منه ، وانتظر إلى أن أحضروه له وسلمه إلى أمه ، ولم يكف بذلك ، بل كلف رجاله بحملها هي ورضيعها على فرس إلى معسكر الأعداء .

ذكر لويس كل ذلك وهو يعود بذناكرته إلى الوراء .

## حديث ذو شجون

أخذ لويس يسترجع وهو في محبسه الضيق ذكريات الماضي القريب مع أخويه ، وقد قيدت أيديهم وأرجلهم بالأغلال .. ذكريات مريرة أليمة أخذ يستعيدها في مخيلته وكأنها شريط سينمائي للأساة تتتابع صورها وتلاحق مناظرها ..

جلس الإخوة الثلاثة يتحدثون والحزن يشعلهم .. وقال لويس وهو في شبه غفوة وقد علته كآبة واصفر لونه :

— آه .. لم نحسب لمقاومة جيش مصر وشعبها حساباً .. وظننا أن البلاد ستقع لقمة سائغة في أفواهنا .. وهانحن أولاء الآن نجني ثمار فعلتنا هذه .. ثماراً مرة المذاق ..

فيرد عليه كونت أنجو متحسراً :

— نعم يا أخى .. لقد أسأنا التقدير .. ولم نحسب أننا سنواجه رجالات مسلحين بالإيمان والمزم والإصرار على محققنا وطردهنا شر طردة ..  
ويضيف شقيقه الثانى كونت بواتييه قائلاً :

— ليست هذه هى الهزيمة الأولى التى تنزل بنا .. لقد تلقى أجدادنا فى حملة سابقة ، وعلى أبواب هذه المدينة نفسها ، لطمات شديدة من أهلها ، وصفعات قوية من جيشها .. ولكننا لم نعتبر ولم نتعظ ..

ويستطرد لويس وكأنه يعاود خياله :

— نعم . . نعم . . هذه هي إرادة الله التي لا مفر منها . وها نحن  
أولاء الآن نكفر عن آثامنا وخطايانا .

ولإي هنا ينتهي الحديث ويسود المكان سكون رهيب ...



## دمشق تحتفل بالنصر

مضت أيام على وقوع لويس ورجاله في الأسر كانت البلاد خلالها  
في أفراح مستمرة .. ورحل الملك المعظم توران شاه والقوات المصرية  
من المنصورة إلى فارسكور استعداداً لاسترداد دمياط .. وهناك أقام  
المعظم سرادقه ، وشيد إلى جانبه برجاً خشبياً كان يصعد إليه ليشرف  
على المعسكر والقرية كلها ..

وكان النصر الذي أحرزته مصر باهرًا مجيداً .. فإذ نزل توران شاه  
بسرادقه في فارسكور بعد أن تم إخضاع الجيش المغير ، وكان ذلك في  
آخر أيام شهر أبريل ، حتى بعث بالبشرى إلى بلاد الشام .. فأوفد رسولاً  
يحمل كتاباً يتضمن النبأ البعيد إلى نائبه بدمشق الأمير جمال الدين  
ابن يغمور .

وفي حفل كبير أقيم بدمشق حضره ابن يغمور ، تلا الرسول على  
الحاضرين كتاب السلطان :

« الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ، وما النصر إلا من عند الله ، ويومئذ  
يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصرون من يشاء وهو العزيز الرحيم .. وأما  
بمنعمة ربك فحدث ، وإن تمسّدوا نعمة الله لا تحصوها .. نبشّر  
المجلس السامي الجمالي ، بل نبشّر المسلمين كافة ، بما منّ الله عليه على المسلمين من  
الظفر بعدو الدين .. فإنه كان قد استفضل أمره ، واستحكم شره ، ويئس  
العباد من البلاد ، والأهل والأولاد ، فنودوا لا يتيسوا من روح الله .

ولما كان يوم الثلاثاء مستهل السنة المباركة ، تَمَّ الله على الإسلام بركتها ..  
فتحنا الخزان ، وبذلنا الأموال . وفرقنا السلاح ، وجمعنا العربان  
والمتطوعة ، وخلفاً لا يعلمهم إلا الله .. لجأوا من كل فج عميق ومكان  
صحيح .. فلما رأى العدو ذلك ، أرسل يطلب الصلح فأيننا .. فلما كانت ليلة  
الأربعاء تركوا خيامهم وأموالهم وأقوالهم ، وقصدوا دمياط هاربين ،  
فسرنا في آثارهم طالبين . وما زال السيف يعمل في أديبارهم عامة الليل ،  
وقد حل بهم الخزي والويل . فلما أصبحنا يوم الأربعاء ، قتلنا منهم  
ثلاثين ألفاً ، غير من ألقى بنفسه في اللجج ، وأما الأسرى فحدث عن  
البحر ولا حرج .. والتجأ الفرنسيين إلى المنية وطلب الأمان فأمناء  
وأخذناه وأكرمناه . .

فصفق الحاضرون طويلاً ، وارتفعت زغاريد النساء ، وعلا التهليل  
والتكبير حمداً لله وشكراً .

ثم سلم الرسول لابن يغمور غطاء الرأس الذي كان يلبسه الملك  
لويس ، وكان قد سقط منه في أثناء فراره قبل وقوعه في الأسر .. وهو  
مصنوع من الصوف ، قرمزي اللون ، مزين بالفراء الجميلة . فلبسه الأمير  
في الحفل .. وبلغ من روعة الموقف أن ارتجى أحد الشعراء هذين البيتين .  
إن غفارة الفرنسيين التي جاءت . فهي حقاً لسيد الأمراء (١)  
كيباض القرطاس في اللون لكن صبغتها سيوفنا بالدماء  
وقال آخر مخاطباً الأمير ابن يغمور :

يا واحد العصر الذي لم يزل يحوز في نيل المعالي المدي  
لازلت في عز وفي رفعة تلبس أسلاب ملوك العدا

(١) هكذا ورد في ذيل الروضتين، وهو مكسور ولغظة ، التي ، زائدة .

## نهاية طاعية

في هذا الوقت الذي كان فيه لويس وباقي الفرنج في ربة الأسر  
وفي هذا الوقت الذي كانت فيه العروبة تقيم الإفراح ابتهاجاً بالنصر..  
وقع حادث له مغزاه ، فأنقلبت الأمور رأساً على عقب .

كان الحديث يدور في بادئ الأمر همساً داخل المعسكر المضرى  
بقارسكور حول تصرفات الملك المعظم توران شاه ، ولكنه سرعان  
ما أصبح ثورة تعتمل في نفوس الأمراء والجند وعامة الشعب  
على السواء ..

قالت شجرة الدر مخاطبة الأمير بيبرس قائد الجيش ، وفي صوتها  
لوعة وفي تبرات حسرة ..

— إى والله . هكذا يكون جزاؤنا نحن الذين بلغ من إخلاصنا  
للمعظم أن حفظنا له عرشه إلى حين وصوله ، وناديناه به سلطاناً على  
البلاد وهولايال غائباً في أرض نائية .. لقد أخذ يسي معاملتنا ، ونسى  
أو تناسى ما أبليناه نحن بمالك أييه من الوقوف في وجه الدخلاء  
للمعتدين ودفع عناوهم الغاشم .. وأنه لولانا لوقعت البلاد في قبضتهم .  
فيأتيها الرد من بيبرس .

— لقد نسي كل هذا ، يا مولائي ، وازداد غروراً وصلفاً منذ عودته ..  
وبلغنى أنه أصدر أوامره بالقبض على عدد كبير منا ، وإخراجنا من  
وظائفنا ليسبغها على خدومه الذين استأثروا بإعزازة وعنايته دوننا ..

كفاه أن يقضى وقته بين ندمائه في الفسق والمجون .. بل كفاه أن ينغمس إلى أذنيه في الملذات والشراب مع غلمانه ومحظياته .

— لقد روى إلى يابيرس أكثر من ذلك . إذ وصل إلى مسامعي أنه عزم على إرسال الأمير أقطاي بالبشرى بالانتصار على الأعداء إلى الأمير بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، وأوصاه أن يقبض عليه ويقتله بمجرد وصوله إليه .. كما أنه عزل الأمير حسام الدين نائب السلطنة بالقاهرة ، وترك مطروح الجانب .. بل إنه أخذ يهينني ويتوعدني ، وطلب مني أن أرد إليه أموالى وما تحت يدى من الجواهر لينفقها على مله وملذاته !

— هل تعلمين ياسيدي أنه عندما يحتسى الخمر وتلعب برأسه ، يضرب بسيفه رموس الشموع صائحاً : هكذا سأفعل بمالك أبى .. وهكذا سأطيع برقاهم ، ١٩

وتعود أرملة الصالح أيوب قائلة :

— هيه .. لقد هانت شئون الحكم إلى حد أن يتولاها ملك مختل العقل ، سىء التدبير ، فيه خفة وهرج وطيش .. إن تصرفاته هذه نفرت منه قلوب الممالك والأجناد وعامة الشعب ، وإن الجميع يتحينون الفرصة للخلاص منه .

— إن الأمر جد خطير .. فالخطر محقق بنا وببلادنا .. وعلمت أنه يود الاتفاق مع الفرنج بأى ثمن لينخلوله الجو ، ولو كان ذلك على حساب الوطن وحرية واستقلاله .. وأرى أن نسرع بالتخلص منه ، لأننا لو وقفنا مكتوفى الأيدي لكان فى ذلك هلاكنا وضياع بلادنا العزيزة .

كان من نتيجة ذلك أن انفتحت هوة العداوة بين توران شاه وبين الأمراء البحرية ورجال الجيش وعلى رأسهم زوجة أبيه شجرة الدر .. ولا سيما أن الأمر يتعلق بمصير البلاد ومستقبلها .. وازدادت هذه الهوة مع الأيام عمقا واتساعا .. وانتهى الأمر باتفاق شجرة الدر والأمراء فيما بينهم على ضرورة التخلص منه قبل أن يفلت الزمام ويصعب علاج الموقف .

ففي يوم الاثنين الثاني من مايو مدَّ المعظم السباط في سراقده للمقام على ضفة النيل في فارسكور ، وتناول الطعام مع بعض رجال حاشيته وندمائه .. وبعد أن فرغوا منه ، قام السلطان من مجلسه ودخل خيمته .. وبقاء اقتحم الأمير بيبرس البندقدارى الخيمة وقد شعر سيفه في وجه السلطان قائلا :

— إنه من الإجماع في حق هذا الشعب الأبى ، وفي حق هذه البلاد الآمنة التي آوتك ورفعتك إلى مصاف الملوك ، أن تبقى عليك حيا ترزق .. وإن الثمن الوحيد لكرامة هذا الشعب التي أهدرتها هو دمك .. وقد جئت اليوم باسمه لنسل العار الذي لحقه على يدك .

قال المعظم في خبث :

— مارأيك يا بيبرس في أن أجعلك واليا على الإسكندرية .. أو نائب السلطنة في العاصمة ؟

فقال بيبرس في إصرار :

— لست وزملائي من تهويم المناصب والألقاب .. لقد جئنا لتطهير البلاد من مفاسدك .

وفي استعطاف قال المعظم :  
— أتوسل إليك يا بيارس في العفو عني .. إنني على استعداد للتنازل  
عن عرشي ، على أن تبقوا على حياتي وتتركوني أغادر البلاد ..  
ويواصل بيارس حديثه في عزم ومخزية :

— لقد خنت الأمانة التي حملناك إليها . والآن جاء دورك يا مولاي ..  
وحينئذ اقترب قائد الجيش من المعظم ووجه إليه ضربة بسيفه  
بترت بعض أصابعه ، ثم أسرع بمغادرة الخيمة ، وتحامل السلطان على  
نفسه ، وصعد إلى البرج والدماء تنزف من حيث ضمد جراحه ، ولكن  
سرعان ما أحاط المماليك بالبرج ، ونادوه لكي ينزل إليهم .. ولما رفض  
الإذعان رموا البرج بالنيران الإغريقية ، فاندلعت فيه ألسنة اللهب ..  
ففرع السلطان ، وألقى بنفسه منه ، واتجه مسرعاً نحو الشاطئ ورى  
بنفسه في النيل طلباً للنجاة .. لكنهم لحقوا به في الماء وهو يسبح حتى  
وصل الماء إلى حلقه ، وأدركه أقطاي وضربه بالسيف فأصاب منه  
مقتلاً .

وهكذا جنى الملك الضليل ثمرة مجونه وشهواته واستهتاره ..  
وهكذا مات المعظم توران شاه جريحاً حريقاً غريقاً .. وتركت  
جثته ملقاة على ضفة النهر ثلاثة أيام دون أن يحضر أحد على دفنها ، حتى  
شفع فيه رسول خليفة بغداد ، لحمل إلى الجانب الآخر من النهر ودفن ..

\* \* \*

وبعد مقتل توران شاه اجتمع الأمراء والمماليك البحرية وأعيان

الدولة عند سراق السطان ، وأجمعوا على تنصيب شجرة الدر عصمة الدين أم خليل ملكة لغزير عقابها ، وسعة حيلتها ، ولعلمهم أنها كانت تشارك زوجها الراحل في تدبير أمر الملكة .. فهي التي قامت بإدارة دفة الحكم في الفترة بين وفاة الصالح ومقدم ابنه المعظم ، كما خرجت بالبلاط سالمة مما يهددها عندما كان الأعداء على الأبواب ، وعهد للمالِك إلى الأمير عز الدين أيك التركاني الصالحى بقيادة الجيش .. وحلف لها الجند باعتبارها ملكة ، وله باعتبارها قائداً عليهم ، وأنهى أحد الأمراء إلى شجرة الدر ما استقر عليه رأيهم ، فوافقهم على ذلك مبدية رضاهما وارتياحاً .. وصارت الأمور كلها راجعة إليها ، وخرجت المراسيم والأوامر باسمها ، وخطب لها على منابر مصر والقاهرة ، وضرب اسمها على الدراهم والدنانير ، وعد هذا حدثاً فذاً ، إذ كانت أول امرأة بل المرأة الوحيدة التي حكمت مصر في التاريخ الإسلامى كله .

## مفاوضات الصلح

وبموت توران شاه وإعلان شجرة الدر ملكة على البلاد ، ينقضي حكم الأسرة الأيوبية في مصر ويبدأ عصر المماليك البحرية .. هذا والفرنسيون في أسر المصريين لا يكادون يعرفون من أمر هذه الحركة سوى أن سلطاناً اغتيل ليحل محله سلطان آخر ..

ففي تلك الفترة التي كانت فيها حياة لويس وباقي الأسرى في كفة القدر ، بدأت المفاوضات بين المصريين والفرنج .. وكان يمثل شجرة الدر والأمراء البحرية وقد على رأسه الأمير حسام الدين بن أبي علي . لما كانوا يعرفونه عنه من رجحان عقله ، وحسن تقديره للأمور ، واعتماد الملك الصالح عليه .. وناب عن الفرنج ، ولیم ، أمير الأراضي الواطنة ..

ودامت المفاوضات فترة طويلة ، أذعن الأعداء بعدها للشروط التي أملاها عليهم المصريون .. وأبرم الفريقان معاهدة الصلح التي نصت فيها على أن يرد الملك الفرنسي مدينة دمياط إلى المصريين ، وعلى ألا يقصد سواحل الإسلام مرة أخرى ، وأن يدفع مبلغاً معيناً من المال نظير إخلاء سبيله وسبيل باقي الأسرى ، وعوضاً عن الأضرار التي لحقت بالبلاد خلال العدوان .. وتعد المصريون من جانبهم برعاية مرضى الفرنج الذين بدمياط ، والمحافظة على معناتهم إلى أن تحين الفرصة لاخذها .. ثم أقسم الطرفان باحترام هذه الشروط وعدم الإخلال بها ..





رسل مصر يملون شروط الصلح على أسرى الفرنسيين

## المصريون يستردون دمياط

وما إن أبرمت المعاهدة حتى توجهت قوة كبيرة من الجيش المصرى إلى دار ابن لقمان حيث يوجد الملك الأسير .. وفى الحال نقل هو وشقيقاه مع كبار الأسرى من الفرنج تحت الحراسة فى أربع سفن حيث أرسوا قبالة الطرف الشرقى لجسر دمياط فى مساء يوم الخميس الخامس من مايو سنة ١٢٥٠م - ٦٤٨هـ وذلك بعد أسردام قرابة شهر .. وهنالك ضربت خيمة كبيرة للملك الفرنسى بالقرب من الجسر نزل بها ..

وفى صباح يوم السبت السابع من نفس الشهر أوفد لويس أحد رجاله إلى دمياط لتسليمها للمصريين .. وفى اليوم نفسه دخلت القوات المصرية ثانية إلى المدينة ، ورفعت العلم المصرى على سورها وأبراجها خفاقاً عالياً ، وأعلن فيها بكلمة الإسلام وشهادة الحق ، بعد أن ظلت فى أيدي الغزاة زهاء عام كامل ..

وفى مساء اليوم نفسه أدخل المصريون سيدى الملك لويس وعدد كبير من الأمراء وكبار الفرنج وفرسانهم ، من بينهم كونت أنجو ، ولكنهم أبقوا عندهم كونت بواتييه رهينة إلى أن يدفع الملك الفدية كاملة حسب الاتفاق . ولما دفعت أطلق سراح الكونت ، ونقل الجميع إلى البر الغربى لدمياط ، وكانت تحيط بالملك قوة كبيرة من المشاة المصريين ، وهنالك كان فى انتظار لويس سفينة جنوبية راسية بالقرب من الشاطئ ..

وفي يوم الأحد الثامن من مايو عام ١٢٥٠م - ٦٤٨هـ أفلعت سفن  
الأعداء من دمياط ثقل الملك الفرنسى وقلول قوائمه ، بعد أن أضنتهم  
الهزائم المتتالية ، واستبدت بهم الكوارث المتلاحقة ، حتى لم تبقى منهم  
إلا أقلية هزيلة محطمة .

## مآتم .. وأفراح ..

وفي الوقت الذي غادر فيه ملك الفرنسيين وبقايا جيشه المحطم  
الليار المصرية ، تصل رسالة إلى فرنسا من لويس تصف المآسى التي  
أنزلها المصريون به وبقومه ، وتفيض المأ ولوعة وحسرة ، لما منيت به  
الحملة من ضربة قاصمة وهزيمة منكرة .. وكان هذا النبأ بمثابة مآتم علم  
في أوروبا .. أما فرنسا فقد لبست ثوب الحداد ، وشملها الحزن من  
أدناها إلى أقصاها ، وتحول كل شيء في المملكة إلى أنين وبكاء ونحيب ؛  
فالآباء والأمهات يندبون أبناءهم ، والصغار واليتامى يكون ذويهم ،  
والأقارب والأصدقاء ينوحون على أقاربهم وأصدقائهم ..

أما في مصر ، فقد عمت الأفراح بعد هزيمة الطغاة ، وأعلنت البشائر  
في سائر البلاد العربية .. واحتفل المصريون بصلاة الجمعة في مسجد  
دمياط الذي كان الفرنجة قد أحالوه إلى كنيسة لاثينية خلال عدوانهم  
الآخر .. ودقت أجراس الكنائس ابتهاجاً بالنصر .. وعادت القوات  
المصرية المنتصرة من دمياط إلى القاهرة وهي تنشد أهاليج النصر ..  
وعند ما مر الجند بالمنصورة زاروا أضرحة شهدائهم في المعركة .. ثم  
توجه أفراد الشعب إلى جامع الشيخ المواقى القائم في وسط المدينة حيث  
أدوا الصلاة خشوعاً بين يدي الله ، وتليت الفاتحة على أرواح الشهداء  
الذين رووا الأرض بدمائهم الزكية الطاهرة .. ولما وصل موكب النصر  
إلى العاصمة ، انتهزت الملكة شجرة الدر هذه الفرصة ، فأنفقت الهبات

والأموال ، وخلعت على الأمراء والجنود وأرباب الدولة ، وأنعمت عليهم  
بالتب والمناصب العالية ، تقديرأ لما أبدوه من ضروب البسالة في سيل  
طرد الغزاة وتطهير البلاد ..

وتبارى الشعراء في تمجيد هذا النصر والإشادة به . . ولم يدع شاعر  
مصر جمال الدين بن مطروح هذه الفرصة تمر دون أن يسجلها في قصيدة  
عصماء قال فيها :

قل للفرنسيس إذا جسسه	مقال حق صادر عن نصيح
أجرك الله على ما جرى	من قتل 'عباد يسوع المسيح
أتيت مصرأ تبتنى ملكها	تحسب أن الزمر يا طبل ربح
ساقك الحنين إلى آدم	ضاق به عن ناظريك الفسح
وكل أصحابك أوردتهم	بفتح تدبيرك بطن الضريح
خمسون ألفأ لا يرى منهم	إلا قتيل أو أسير جريح
وقتك الله لأمثالها	لعل عيسى منكم يستريح

واختتما مشيعاً متوعداً :

وقل لهم إن أضربوا عبودة	لاخذ ثار أو لقصد صحيح
دار ابن لقمان على حالها	والقيد باق والطواشي صليح

ومن أطرف ما قيل في هذه المناسبة أيضاً ما تغنى به شاعر آخر :

أركبهم أدهماً خضياً ورايح الشر فهو غاسر .  
ورام دبابهم ، أموراً فأخلفت ظنه المقادر  
وأذهل القوم حول حرب تشخص من خوفه النواظر  
لم نعم أبصارهم ولكن قد عميت منهم البصائر

\*\*\*

فإن يعد طالباً لثأر من أرض دمياط فليبادر  
فذلك البحر تعرفوه والسيف ماض والجيش حاضر  
ويحكى أن شاباً من أهالي تونس تلباً بالمصير الرهيب الذى ينتظر  
هذا الملك عند ما بلغه عزمه على قصد بلاده ، وكان ذلك بعد عشرين سنة  
من هزيمة الفرنسيين فى مصر أى فى سنة ١٢٧٠ م ، فقال :

يا فرنسيس هذه أخت مصر فتأهب لما إليه تشير  
لك فيها دار ابن لقمان قبر وطواشيك منكر ونكير  
وقد كان هذا فألا حسناً .. فقد مات ملك الفرنسيين — أى لويس  
التاسع — وهو على محاصرة تونس وعلى أبواب قرطاجنة ، دون أن  
يتأتى له تحقيق أطماعه .. ودون أن يسمح عن جبينه عار هزيمته السابقة  
فى مصر ..

وموت الفرنسيين لتقليص ظل الاستعمار فى العالم العربى ، وأصبحت  
هذه المحاولات الحرقاء حلماً من أحلام الماضى البعيد ، عمل الفرنج على  
تحقيقها عدة قرون متلاحقة ، فكان نصيبها الإخفاق والخذلان ..

\*\*\*

وبعد فهذه هي قصة أسر الملك الفرنسي لويس التاسع واندحار  
العدوان الصليبي في المنصورة وعلى ضفاف النيل في منتصف القرن  
الثالث عشر الميلادي .. بل هذه هي قصة البطولة والكفاح ضد الاستعمار  
يروىها التاريخ ليتذكر الفرنسيون ما نزل بأسلافهم من كوارث  
وويلات، وليتذاكر الأبناء والأحفاد من أهل العربية أجداد الآباء  
والأجداد ..

## دراسة تحليلية في أسباب فشل العدوان

لقد باءت حملة لويس التاسع الصليبية على مصر بالإخفاق التام، وعادت أدراجها من حيث أنت دون أن تحقق الغرض العدواني الذي قامت من أجله، وبعد أن لقيت شر أنواع الهزائم على ضفاف النيل . ويمكن إرجاع فشلها إلى عدة أسباب متفاوتة التأثير أدت بها إلى هذه النهاية المخزية .

لا خلاف أن الفضل الأول فيما لحق بالصليبيين من هزائم وويلات يرجع إلى موقف الشعب المصرى من الحوادث التي مرت بها البلاد في تلك الفترة العصية . من تاريخها ، ذلك الموقف الذى سجله لنا الكتاب والمؤرخون بأحرف من نور في كتبهم وتآليفهم . لقد أثبت هذا الشعب الواعى أنه لم يكن بمعزل عما يجرى حوله من أحداث وتقلبات ، إذ شارك مشاركة فعلية في الدفاع عن كل شبر من أرض الوطن ضد الفرنج المعتدين ، مضجياً في ذلك بكل شيء ، مستعذباً بالموت في سبيل حريته واستقلاله وكرامته . ولم يترك وسيلة إلا اتخذها لمضايقة أولئك الدخلاء ولحاق الأذى بهم ، إلى أن انتهى الأمر بطردهم وتطهير البلاد من دنسهم وأدرانهم . فبدا كالمارد العملاق الذى أدى دوره في المعركة كأحسن ما يكون الأداء . كان الرجل الذى يغلى والنار المستعرة التى ألهبت ظهور المعتدين . وكان القوة الكامنة التى أذهلتهم وبلبلت خواطرم ولقنتهم دروساً لن ينسوها في التضحية والاستشهاد وفي البطولة والكفاح . لقد تمكن الشعب باتحاده وتماسكه من الوقوف في وجه الغزاة وقفة رجل



واحد ، ولولا بلاؤه ومواقفه المشرفة يومذاك في المنصورة وفارسكور ما تم إحراز الغلبة على العدو . كان يقاتل دفاعاً عن شرفه وكيانه ، ويذود بروحه ودمه عن بلاده ، ويجاهد مستشهداً عن عقيدة وإيمان حتى كتب له النصر ضد قوات البغي والعدوان .

وإلى جانب هذا العامل الأساسي ، كانت توجد عوامل أخرى أدت منجمة إلى إخفاق الفرنج في تحقيق بغيتهم .

فن أسباب الهزيمة جهل لويس التاسع ورجاله بجغرافية البلاد المصرية وطبوغرافية الطريق الذي اتخذوه للوصول إلى القاهرة بعد احتلالهم لمدينة دمياط . فقد ارتكب لويس نفس الخطأ الذي وقعت فيه حملة جان دي برين على مصر قبل ذلك التاريخ بثلاثين سنة ، إذ استخدم نفس الطريق المائي الوعر الذي استخدمه جان دي برين من قبل ، نعى الطريق من دمياط إلى القاهرة ماراً بالمنصورة فيها . ولا غألي إذا قلنا إن غزو مصر عن هذا الطريق كان مصيره الإخفاق إذا ما أبدى المدافعون شجاعة وذكاء عادين .

وإن المصير الذي آلت إليه حملة لويس التاسع ومن قبلها حملة جان دي برين ، لهو دليل كاف على صحة ما نقول . فلم يستول قائد الحملة الصليبية الخامسة على دمياط إلا بعد حصار دام زهاء سبعة عشر شهراً ، وعندما تقدم داخل الدلتا كانت قواته قد أنهكت . بعد هذا الحصار الطويل ، وقد توقفت أمام بحر أشموم حيث كان يعسكر قبائله من الناحية الأخرى جيش الملك الكامل محمد مستعداً لتوجيه الضربة القاصمة . وقد قام الفرنج بعدة محاولات فاشلة لعبوره ، وأحسوا بخيبة الأمل

عندما تدينوا أن الأرض التي كانت تفصل بينهم وبين قاعدتهم في دمياط قد غمرتها مياه الفيضان ، إذ كان النيل في ازدياد ، واستغل المصريون هذه الفرصة وهدموا السدود ، فأسرع الأعداء بالتراجع صوب دمياط ، لكن المياه كانت تحيط بهم من كل جانب ، وأسقط في أيديهم ، وتعقبهم المصريون بشدة . ولكي ينجو الصليبيون بأنفسهم من المجاعة أو الفرق اضطروا إلى طلب فتح باب المفاوضات ، وقد سمح لهم السلطان بالرحيل بعد أن أخذوا دمياط مرغنين منهزمين . وكان ذلك في سنة ٦١٨ هـ - أغسطس سنة ١٢٢١ م .

أما مصر حملة لويس التاسع فكان أسوأ من تلك بكثير عندما اتبع نفس الطريق في نوفمبر عام ١٢٤٩ م . ولأنه لايسعنا بعد ما كان من أمر حملة جان دي برين ، إلا أن نعجب لاختياره نفس الطريق . ولقد بدأ بداية أكثر توفيقاً من سلفه ، لأنه وضع يده على دمياط بعد مفاوضات بسيطة مع القوات المصرية . ولكنه عندما بدأ زحفه أخيراً في نوفمبر ، بعد ما أضعاع بدمياط قرابة ستة أشهر ، واجهته نفس العقبة التي تسببت في إخفاق حملة جان دي برين ، وهي قناة أشموم التي كان من المستحيل عبورها ، والتي كان الشعب والجيش يقومان بالدفاع عنها من الناحية الأخرى . وقد حاول لويس مراراً إقامة جسر لعبور قواته ، إلا أن المصريين كانوا يحطمونه بنيرانهم الإغريقية مرة بعد أخرى . وأخيراً أفلح ملك الفرنسيين في عبور القناة هو ورجاله ، وأقاموا لأنفسهم مركزاً جنوبي هذه القناة . لكن هذا النجاح كلفهم غالباً بعد ما لاقوه من الصعاب والمخاطر في سبيل عبورها ، حتى أنه لم يكن يوسعهم التقدم أكثر من ذلك . وقد لبثوا بالقرب من المنصورة بضعة أشهر غير قادرين

على التقدم أو راغبين في التراجع ، إلى أن تفشت المجاعة والوباء بينهم في آخر الأمر فاضطرتهم إلى الارتداد . ولكنهم لاقوا الأمرين من ضربات المصريين الذين قطعوا عليهم طريق العودة . وأخيراً أحبط بالملك الفرنسي واقتيد أسيراً . وبعد ذلك سرعان ما ألقت فلول جيشه المظلم سلاحها مستسلمة . وقد اضطر الملك الأسير وجيشه الكسير إلى قبول ما فرضه عليهم المصريون .

وبما يجب الإشارة إليه تعليقاً على خطة الملك لويس الحربية في اختياره هذا الطريق ، أنه حتى لو كان قد نجح في عبور بحر أشموم بمجرد وصوله إليه ، فإنه كان عليه بعد ذلك عبور عدة أفرع وقنوات أخرى تخرج من النيل قبل وصوله إلى القاهرة . ولا يمكن تفسير حماقة أولئك الدخلاء في اختيارهم هذا الطريق غير العمل إلا بجهلهم بطبيعة البلاد الجغرافية في تلك الأيام التي خلت من الخرائط .

وقد أشار المؤرخ الإنجليزي المعروف شارل أومان إلى الطرق التي كان يمكن حملة لويس اتخاذها للوصول إلى عاصمة النصارى المصرية ، فيقول إنه للوصول إليها لم يكن هناك إلا طريقان عمليان حتى يمكن للقوات الصليبية تغاضي قنوات الدلتا وبحارها العديدة . وأحد الطريقين هو الرسو في الإسكندرية مع الاحتفاظ بخط سير إلى غربى فرع النيل الغربى ( فرع رشيد ) ، كما فعل نابليون بونابرت في حملته على مصر عام ١٧٩٨م ويمر هذا الطريق بدمهور والجيزة ، وتنحصر مسأوته في أن المرحلتين أو الثلاث المراحل الأولى فيه تقع في صحراء ، وتنتهى بالغزاة عند الجيزة قبالة القاهرة والنيل مازال فاصلاً بينهم وبين هدفهم . وقد يكون في

عبور الفرنج النيل بعد هذا المسير الطويل بعض الصعاب في مواحة أفراد الشعب والقوات المصرية على الضفة الشرقية . ولكن بما لاشك فيه أن طريق الإسكندرية — القاهرة كان أسهل وأسلم عاقبة من طريق دمياط — القاهرة ، على الرغم مما كان يعترضه من عقبات ، كما أنه كان يوسع الفرنج بعد استيلائهم على دمياط أن يتفادوا هذا الخطأ الذي وقعوا فيه في محاولتهم الثانية ، فيزلوا على الإسكندرية بدلا من التوجه جنوباً من دمياط صوب العاصمة ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك .

أما الطريق الثاني فيبدأ بالقرب من الفرما القديمة التي كانت تسمى وقتذاك بلوزيم ، ويمر بالصالحية وبلبيس في الطريق إلى القاهرة مع السير إلى شرق القرع الشرقي للنيل ، وهو يؤدي بالغزاة إلى القاهرة مباشرة ، كما أنه يخلو من القنوات والترع . وقد تعرضت مصر مرارا للغزو من هذا الطريق الذي سار فيه قبيل والإسكندر الأكبر وآموري الأول الملك الفرنجي . لبيت المقدس وغيرهم . ولكن هذا الطريق كان يتطلب قاعدة للهجوم ، كأن يتحكم الفرنج في سورية مثلا ، وهذا الأمر لم يتوفر للفرنج سنة ١٢٤٩م ، كما أنه لم يكن هناك ميناء يمكن الاستيلاء عليه واستخدامه كقاعدة للإمداد ، إذ انتهى أمر الفرما بأن خربها شاور وزير العاضد آخر خلفاء الفاطميين بمصر في منتصف القرن السادس الهجري لما قاسته من غارات الفرنج المتتالية عليها . ولكن رغماً عن ذلك فقد كان لهذا الطريق مزاياه ، لأن الرسو هناك كان ممكناً لأسطول بحري كبير . إذ أن الساحل شرق الفرما على الرغم من قلة غوره عند الشاطئ ، كان يخلو من أية عبة حقيقية تعترض تقدم سفن خفيفة كسفن القرن الثالث عشر الميلادي . وإن نظرة فاحصة إلى خرائط الدلتا في المنطقة الواقعة شرق الفرما

ومستنقعاتها . يبدو فيها الشاطئ رملياً ذا عمق يسمح لرسو السفن الخفيفة بالقرب منه . ولكن إذا مارسا الجيش كان عليه أن يودع أسطوله ويخاطر بهجوم مباشر على القاهرة عبر الصالحية .

وكما أخطأ لويس التاسع في اختيار الطريق السليم الذي يسلكه إلى القاهرة ، كذلك لم يقدر بوصفه قائد الحملة أهمية العامل الزمني في الحروب ودخله في تقرير مصيرها . إن الحروب تقوم عادة على السرعة والمباغنة ، لأن هذه السياسة هي أحسن ما يمكن اتباعه لبث الاضطراب في المعسكر الآخر . ولكن حوادث الحملة أثبتت أن الصليبيين لم يراعوا على الإطلاق قيمة هذا العامل الهام ، وما يترتب على التباطؤ والتأخير من أضرار بالغة .

فأول ما يسترعى انتباهنا أن الحملة أقامت بقبرص زهاء ثمانية أشهر قبل تحركها صوب مصر ( سبتمبر ١٢٤٨ — مايو ١٢٤٩ م ) . ومهما كانت الدوافع التي أدت إلى هذا التأخير الطويل ، فإنه كان خطة خاطئة ، ويقدر ما أضر الفرنج المعتدين أفاد المصريين . فلو واصل الصليبيون تقدمهم دون توقف في الجزيرة لباغتوا قوات المماليك قبل أن تتخذ للحرب أهبتها ، ولوجدوا فصلاً ملائماً لعملياتهم الحربية . فقد كانت سبتمبر — وهو الشهر الذي وصلت فيه الحملة إلى قبرص — شهراً مناسباً لتقدم الجيش ، إذ كان الفصل خريفاً ودرجة الحرارة معتدلة . لكنهم أضعفوا الأشهر في الجزيرة يتنازعون فيما بينهم ، كما نفذت أموالهم ومؤثرهم ، وانغمسوا في الملذات نتيجة الكسل ، وانتشرت في معسكرهم الأمراض التي فشلت بعدد كبير منهم .

وحتى بعد استيلاء الفرنسيين على دمياط في يونيو سنة ١٢٤٩ م —  
١٢٤٧ هـ يبحرنا هو ورجاله بتصرفاتهم مرة أخرى ، فإ كان منهم إلا  
أن قعدوا في دمياط قعودهم في قبرص . فقد أقاموا بها قرابة خمسة أشهر  
ونصف ( ٧ يونيو — ٢٠ نوفمبر ١٢٤٩ م ) . ولقد أدرك كثير من  
المؤرخين المحدثين ما ترتب على هذا التأخير من مضار ، واعتبروه بمثابة  
ضربة قاضية أصابت الحملة . لقد كان بوسع الملك الفرنسي أن يواصل  
زحفه بعد احتلاله دمياط في يونيو ١٢٤٩ م — ١٢٤٧ هـ ، ولكنه لم يفعل .  
حقاً أن شهر يونيو كان موسماً غير مناسب للغزو خاصة وأن درجة  
الحرارة كانت على أشدها ، ولكن لما كان الغزاة قد بدأوا حملتهم فعلاً ،  
فقد كان عليهم أن يواصلوها . وكان في تأخرهم ما أعطى الفرصة للصالح  
أيوب لتنظيم دفاعه بعد أن وضع له الطريق الذي سوف يسلكه أعداؤه  
بينما انغمس الصليبيون أنفسهم في الفسق والفجور ، مما أدى إلى اختلال  
نظامهم وبث القوضى في صفوفهم كما حدث تماماً خلال إقامتهم في قبرص .  
وأخيراً عندما قرر الدخلاء السير من دمياط جنوباً صوب العاصمة في  
نوفمبر ١٢٤٩ م ، نراهم يتحركون في بطء شديد ، إذ قطعوا المسافة من  
دمياط إلى بحر أشموم وهي لا تزيد على خمسين ميلاً في ٣١ يوماً  
( ٢٠ نوفمبر — ٢١ ديسمبر ١٢٤٩ م ) تكبدوا فيها الكثير من  
المشاق والمخاطر .

وعندما وصل الفرنج إلى شمالي بحر أشموم والنهر يفصل بينهم وبين  
القوات المصرية على الضفة الجنوبية ، أضعوا أيضاً فترة تقرب من  
شهر ونصف ( ٢١ ديسمبر ١٢٤٩ — ٧ فبراير ١٢٥٠ م ) ففقدوا

خلالها عدداً كبيراً من رجالهم وعددهم في سبيل القيام بمحاولة خرقاء ،  
 فعنى محاولتهم عبور هذا المجرى المائى أمام شعب قوى متأهب لمواجهةهم  
 ونزالهم وتأديهم . وأخيراً أفلح لويس في عبور القناة عن طريق مخاضة  
 دله عليها أحد جواسيسه ، حيث اشتبك مع المصريين في معركتين كبيرتين ،  
 فقد فهما عدداً لا يستهان به من جنده وخيله وعتاده . وكانت الحكمة تملئ  
 عليه آنذاك أن تراجع هو وقلوب قواته من حيث أتوا في الوقت الذى كان  
 فيه هذا التراجع ممكناً . لكنهم لم يتحركوا بعد هاتين الموقعتين ، وأضاعوا  
 الوقت كما أضاعوه من قبل في قبرص ودمياط وفى الطريق من دمياط إلى  
 بحر أشموم وبقالة بحر أشموم نفسه . فقد ظل جيش الأعداء مقيماً جنوبى  
 هذا البحر ٥٥ يوماً ( ١١ فبراير - ٥ أبريل ١٢٥٠ م ) آملاً في معاودة  
 العدوان بالهجوم على المنصورة ومواصلة الزحف صوب العاصمة . وكان  
 كل يوم يمر بالفرنج يزيد مركزهم سوءاً . فقد تفشى في معسكرهم الوباء  
 والجماعة مما فتك بعدد كبير منهم ، أما الباقون فقد بلغوا درجة من الضعف  
 لم تمكنهم من مواصلة الكفاح . وعندما قرروا التراجع في آخر الأمر  
 من المنصورة إلى قاعدتهم في دمياط ( فى ٥ أبريل ) كان ذلك متأخراً  
 جداً ، إذ سار الشعب وقوات الممالك البحرية في إثرهم مكبدين إياهم خسائر  
 فادحة في قرية فارسكور ، وقد اقتادوا الملك الفرنسى ورجاله أسرى ،  
 ولم يخلوا سبيلهم إلا بعد أن دفعوا فدية كبيرة وبعد أن تركوا دمياط  
 مرغمين .

وعلى هذا يمكننا القول بأن العامل الزمنى لعب دوراً هاماً في هذه  
 الحملة ، فكلما طال الوقت كان ذلك في خدمة المصريين وفى غير صالح  
 المعتدين على طول الخط .

أما العامل الرابع الذى تسبب فى انهزام الصليبيين فهو العصيان وعدم الطاعة . فلم يكن الملك لويس قائد هذه الحملة صاحب السلطة المطلقة ، ومن ثم لم يكن قادراً على فرض إرادته على قواده ورجاله ، ولإلزامهم باتباع أوامره . فكان رجال الحملة من جند وقواد على السواء يتصرفون حسبما يترامى لهم ضاربين بأوامر قائدهم الأعلى عرض الحائط . ويزخر تاريخ هذه الحملة بالأمثلة التى تؤيد هذا . فعندما وصل الفرنج إلى قبرص ، كان الملك شديد الرغبة فى الزحف السريع إلى مصر دون التوقف بالجزيرة ، لكنه اضطر إلى الإقامة بها فترة طويلة نزولاً عند رغبة قواد جيشه . وكذلك فى فترة إقامة الجيش بدمياط ، انغمس الفرنج فى الملاذات على مرأى من مليكهم ، حتى أنه أصبح عاجزاً تماماً عن السيطرة عليهم ووضع حد لاستهتارهم . ولعل أبلغ مثل على عصيان الأوامر الملكية ما فعله روبرت بعد عبوره بحر أشبوم ، إذ اندفع نحو المنصورة غير مبال بأوامر أخيه ، ولقد بذل الملك ما فى وسعه لمنعه من التقدم ، وأرسل إليه عشرة فرسان يأمرونه بالتوقف والانتظار . ولكن روبرت اختار أن يقوم بهجومه المتهور مخالفاً أوامر قائده ، ذلك الهجوم الذى بام بالفشل أمام كفاح الشعب وتصميمه على سحق العدو . وهكذا أودى شقيق لويس بحياته هو ورجال المقدمة كلهم تقريباً ( صباح ٨ فبراير سنة ١٢٥٠م ) .

وقد يضر هذا العصيان بأنه لم يكن للفرنسيين جيش قوى موحد ، وأنهم كانوا ينظمون قواتهم على الطريقة الإقطاعية التى كانت متبعة فى العصور الوسطى ، وأن الملك ما زال هو الأول بين أقرانه ، ليس له



عليهم سلطة حقيقية . ولكن كيفما كان الأمر فإن قائد جيش إقطاعي كلويس التاسع لم يكن يعقل أو يتوقع أن تتحطم خططه وتتكرر تعليماته من جراء عصيان كهذا .

وفي الوقت الذي كان فيه ملك الفرنسيين لا يتمتع بأي نفوذ حقيقي على رجال جيشه ، نجد أن السلطة كلها كانت مركزة في يد خصمه سلطان مصر . وكانت أهم صفة يتحلى بها جند مصر هي الطاعة العمياء لأوامر قائدهم . فقد كان للسلطان هيئة بالغة في نفوس عماليكه حتى أنهم كانوا يرتجفون رعباً عند المثل في حضرته :

سجدت له حتى العيون مهابة      أو ما تراها حين يقبل تطرق  
ملا القلوب مخافة ومجبة      فالأس يهرب والمكارم تعشق

ولأن مميزات ملوك بني أيوب هذه تظهر لنا مدى التباين بين قوتهم وبين ضعف لويس التاسع كقائد ، والبون الشاسع بين مبدأ الطاعة العمياء التي يدين بها أجناد مصر لسلطانهم ، وبين روح التمرد والعصيان التي تفشت في معسكر الأعداء .

وهناك عامل هام يجب ألا ننغله كان له أثره في هزيمة الحملة ، ألا وهو تفوق المصريين في الناحية الحربية على الصليبيين . فقد كانت مصر في العهد الأيوبي تحتفظ بجيش قائم منظم ، مدرب أحسن تدريب ، صناعته الحرب والقتال ، كما شهد بذلك أحد المحاربين الصليبيين وهو جان دي جوافيل الذي اشترك في الحملة وكتب عنها ، وكان هذا الجيش مقسماً إلى طوائف وفرق وطبقات ، كما كان يتكون من فرسان ومشاة مجهزين بكل ما أنتجه العصر الوسيط من أسلحة ومعدات ، أهمها السيوف .

والسهام والرماح والنشاب والقسي والدبابيس والدروع والمناشير  
ومكاحل البارود وقوارير النفط والستائر والمنجنيقات . وقد اعتنى  
الأيوبيون بأمر هذا الجيش ، حتى أنهم كانوا ينفقون جزءاً كبيراً من  
إيرادات الدولة على إصلاح حاله وبناء ما يلزمه من الحصون والقلاع ،  
وكانت غالبية الجيش الأيوبي في عهد الصالح نجم الدين تتألف من المماليك  
الأتراك الذين اقتنى عدداً كبيراً منهم ، وقد أنشأ لإقامتهم قلعة جزيرة  
الروضة التي جدها بكثير من الأسلحة والأزواد لتكون حصن الدفاع  
عن مصر ضد المعتدين ، وقد عرف هؤلاء المماليك باسم المماليك البحرية  
نسبة إلى هذه القلعة التي ابتناها لهم . وإليهم يرجع بعض الفضل  
فيما أحرزته البلاد من انتصارات باهرة على لويس التاسع ورجاله .

كذلك وجه الصالح أيوب عناية خاصة إلى البحرية المصرية لعله أنها  
من أهم وسائل الدفاع عن البلاد ضد المغيرين عليها . ويكفي للتدليل على  
ذلك أنه عندما علم بعزم الفرنج على قصد مصر ، أمر في الحال بتجهيز  
السفن وإرسالها إلى ميناء دمياط لمنع الأعداء من النزول إليها وامتلاكها .  
كما أسدى النصيح إلى ابنه توران شاه في وصيته التي تركها له قبل وفاته ،  
بتقوية الأسطول المصري حتى يتمكن لإخراز الغلبة على العدو ، ويرجع  
الفضل إلى السفن التي صنعها توران شام وأزّلها في بحر المحلة خلف  
المعسكر الصليبي ، فيما نزل بالفرنج المقيمين جنوبي بحر أشموم من محن  
وبلاء . وكانت أهم القطع التي يتألف منها الأسطول المصري وقتذاك ،  
والتي ورد ذكرها في ثنايا الكتاب ، هي : الشوانى والغربان والحراريق  
والمسطحات والبطس والطرائد والممرات .

ويختلف الأمر تماماً عندما ننظر إلى الجيش الصليبي ، فهو يضم إلى جانب الفرنسيين الذين كانوا يؤلفون غالبية ، جماعات قليلة من الإنجليز والإيطاليين والقبارصة والرهبان المحاربين . فكان هذا المزيج العجيب سبباً في اختلاف ميولهم وأغراضهم وطباعهم وعدم اتحاد كلمتهم ، ومن أمثلة ذلك الانقسام الذي بدأ واضحاً بين الفرق التي كانت تتألف منها مقدمة الجيش الفرنجي التي عبرت قناة أشموم عن طريق المخاضة في صباح ٨ فبراير سنة ١٢٥٠ م ، فلم يكن هناك أي انسجام بين الفرنسيين من ناحية وبين الإنجليز وجماعات الرهبان العسكرية من ناحية أخرى .

ويلاحظ أيضاً أن المصريين كانوا أكثر براعة من خصومهم في أمور القتال والتكتيكات الحربية مما ساعدهم على التغلب عليهم . وتعتبر موقعة المنصورة الثانية ( ١١ فبراير ١٢٥٠ م ) مثلاً حياً على براعة أبناء الوادي في لإحكام الخطط الحربية وتنفيذها . كما كان المصريون موقفين أيضاً في تدبير الحيل والخدع الحربية التي لجأوا إليها لمضايقة أعدائهم ، والتي تتمثل أحسن تمثيل في الخطة التي اختطها المعظم توران شاه عقب وصوله إلى المنصورة ليقطع الميرة ( الأقوات ) عن الفرنج المقيمين جنوبي بحر أشموم ، مما أدى إلى تفتش الجماعة بينهم . كما استطاع المصريون بخططهم المرفقة أيضاً أن يفسدوا على أعدائهم عملهم في تشييد جسر على بحر أشموم للعبور إلى الضفة الجنوبية حيث يوجد المعسكر المصري .

هذا عن المصريين ، أما الفرنج فلم يراعوا النظام والدقة في تنفيذ خططهم الحربية وإحكامها . وآية ذلك موقعة المنصورة الأولى التي بدأت دون أي نظام ودون قيادة موحدة نتيجة عدم الطاعة والتهور والانقسام

بين رجال المقدمة ، بما أوردتهم مورد التهلكة داخل المنصورة نفسها وفي شوارعها ودروبها . فوق هذا فقد كان الغزاة يحاربون في أرض غريبة عنهم ، ولم تكن معداتهم ولا لباسهم في الحرب تتفق مع طبيعة البلاد التي يحاربون فيها . فقد كانوا يرزحون تحت خوذهم ودروعهم الثقيلة على طريقة الحرب في العصور الوسطى ، وكانت هذه الأثقال ترهقهم ولا تساعد على الحركة بسرعة خصوصاً في جو مصر الحار . كما كانوا يستخدمون الجياد الضخمة الثقيلة التي تحول بينهم وبين تنظيم صفوفهم بسرعة إذا ما اختل نظامهم . وقد بدأ هذا واضحاً في معارك المنصورة وعند الانسحاب إلى دمياط .

وفوق ذلك فقد كان لدى المصريين من معدات الحرب أكثر مما لدى الصليبيين ، كما كانوا يستعملون في قتالهم مع أعدائهم القذائف المحرقة والثيران الإغريقية التي كانوا على علم بها قبل أن يعرفها الغريبيون أنفسهم . ونحن لا نفي وصف جوانفيل لهذه النار التي ألقت الرعب في أفئدة الصليبيين وأوقعت الخيل والاضطراب في صفوفهم .

وهكذا كان لما يتمتع به المصريون من وحدة الكلمة ، ووحدة العمل ، ووحدة الصف ، ودقة النظام ، والحركات الحربية السديدة ، والقيادة الحكيمة ، وما كانوا يستخدمونه من الأسلحة التي لم يكن لأعدائهم عهد بها من قبل ، أثره فيما نزل بالمغربين من هزائم .

وهناك عامل آخر تجدر الإشارة إليه وهو الانحلال والتدهور الخلقى الذي كان متفشياً في نفوس الصليبيين مما أدى إلى إنهاك قوام وضعف الروح المعنوية عندهم . فقد انغمسوا في الملذات وحياة الفجور

مع نساء الفرنج ، بدلا من السعى في تنظيم صفوفهم وإعداد خططهم وإحكامها . وإن سلوك الفرنج وتصرفاتهم الشاذة في قبرص ودمياط لا بلغ دليل على ما نقول . كما أن هناك حادثة رواها مؤرخهم جوافيل في مذكراته عن تاريخ حياة مليكة تدل على مدى استهتار الفرنج وخلاعتهم . فقد حدث في مساء موقعة الثلاثاء ٨ فبراير ١٢٥٠م أن ووري الزاب أحد فرسان جوافيل الذي قتل في المعركة . وبينما هو في رقدته الأخيرة داخل تابوته ، أخذ بعض فرسان الفرنج يتحادثون بصوت مرتفع حتى إنهم أزعجوا القس الذي كان يقوم بتلاوة الصلاة الجنائزية . فذهب إليهم جوافيل راجياً منهم أن يخلدوا إلى الهدوء والسكينة احتراماً لروح زميلهم المتوفى . ولكنهم أخذوا يتضاحكون ويتغامزون فيما بينهم ، قائلين إنهم إنما يبحثون عن زوج آخر لأرملته ! والواقع الذي لا مراء فيه أن هذه التصرفات هي التي تميزت بها أعمال الصليبيين بصفة عامة منذ بداية حركتهم العدوانية . في ختام القرن الحادى عشر الميلادى إلى أن انتهى الأمر بطردهم نهائياً من آخر معاقلهم الهامة بالشرق العربى في أخريات القرن الثالث عشر أيام الملك الأشرف خليل قلاون .

وهكذا نرى أيضاً أنه في الوقت الذى كان فيه الفرنج منصرفين إلى اللهو والفحشاء ، كان المصريون منهمكين في تنظيم جيوشهم وإعدادها لمواجهة العدو والحيولة بينه وبين التوغل في بلادهم .

وعلى الرغم من أن هذه الحملة الصليبية اتخذت من الدين ستاراً لتحقيق أغراضها الخبيثة في الديار المصرية والشرق العربى ، إلا أننا

نلاحظ بشكل ملموس فتور هذه الروح بين غالبية المقاتلين وتدخل المصالح المادية في الحركة الصليبية . وإن موقف البحارة الجنوبية واليازرنة خلال العدوان لدليل على ذلك . فقد غلبت على أولئك البحارة الذين بقوا في دمياط لحراستها — عند ما تقدم الجيش الفرنسى جنوباً صوب العاصمة — الصفة التجارية ، ورأوا ألا يعرضوا أنفسهم للخطر عند ما علوا بوقوع لويس التاسع ورجاله في أسر المصريين . فزاهم يقررون ترك دمياط والنجاة بأنفسهم ، ولم يعدلوا عن رأيهم إلا بعد أن ابتاعت الملكة مارجريت كل ما هم في حاجة إليه ، وأدخلتهم تحت نفقتها الخاصة ؛ فقد كانت حرقهم التجارة وهمهم الأول والأخير الكسب المادى .

وحتى جماعات الرهبان المحاربين الذين اشتركوا في الحملة مثل الداوية والاسبتارية ، وللذين من أول مبادئهم الطاعة والفقير والحرمان والتقشف ، أخذوا يتطاحنون فيما بينهم على المغنم والأسلاب . كما أظهروا جشعهم وأنانيتهم عند ما رفضوا لإقراض لويس التاسع المال اللازم لإتمام دفع القدية للمصريين حسب الشروط التى اتفق عليها . ولم يحصل الملك على المبلغ المطلوب إلا بعد مناقشات حامية بينه وبينهم اشترك فيها المؤرخ جوافيل وحفظها لنا في مذكراته .

ويمكن أن نلص الفتور الذى طرأ على الحركة الصليبية من قصيدة كتبها شاعر فرنسى عاصر أحداث تلك الفترة يدعى « رتبوف » ( ١٢٤٥ — ١٢٨٥ م ) يقول فيها إنه من الحماقة أن يخاطر لإنسان في حرب تقسم بالطابع الدينى عارج بلاده ، ما دام بوسعه أن تحصل باقه

في وطنه ويعيش في نعمة وسلام . ويسخر الشاعر في القصيدة من رجال الدين الذين جعلوا من الحروب الصليبية وسيلة لابتزاز الأموال . وبذلك عبر تعبيراً صادقاً عن موقف ذوى العقل في ذاك العصر .

ويمكن القول بناء على ما تقدم إنه لم يكن لدى الفرنج رغبة صادقة في الجهاد ، وإن إخلاص المصريين لهذا الاعتقاد كان يفوق بلا شك إخلاص الصليبيين له . فقد كان لفكرة الجهاد الديني عند الأيوبيين أثرها الفعال فيما أحرزوه على أعائهم من انتصارات . ذلك أن دولتهم قامت على أساس الجهاد ضد الصليبيين البغاة . وكانت كلمة الجهاد تستعمل لإلهاب الحماسة بين الناس ، كما كان يطلق على المحاربين اسم المجاهدين ، وإذا مات أحدهم في أثناء المعركة سمي شهيداً . وكانت الخطب والمواعظ الدينية التي تلقى من فوق منابر المساجد والجوامع في أيام الجمع وسيلة هامة من وسائل الحث على الجهاد ضد أعلاء الروبة . ومن أمثلة ذلك الكتاب الذي قرئ في الجامع الأزهر يوم الجمعة ٣ ديسمبر ١٢٤٩م — ٦٤٧ هـ بعد مغادرة الفرنج دمياط ونزولهم بفارسكور في طريقهم إلى العاصمة .

وغير ذلك ، فقد امتازت هذه الحملة بالتهور وقصر النظر والإهمال الشديد من جانب الفرنج . ويتمثل التهور في اندفاع كونت أرتوا داخل المنصورة بعد عبوره قناة أشمون ، مما ترتب عليه القضاء على مقدمة الجيش الصليبي . أما قصر النظر وعدم التقدير الصحيح لنهاية الأمور وعواقبها ، فيبدو جلياً في القرار الذي اتخذته مجلس الحرب الصليبي الذي عقد بدمياط ، بالتوجه جنوباً صوب العاصمة بدلاً من التوجه إلى الإسكندرية

ذلك القرار الذى كان حلقة جديدة فى سلسلة الأخطاء التى انتهت باندحار الصليبيين وأما إهمال الفرنج وتهاونهم فيتضح فى نسيانهم تحطيم الجسر الموجود على بحر أشموم عند تراجعهم من المنصورة إلى قاعدتهم فى دمياط فى الخامس من أبريل سنة ١٢٥٠ م - ٥٦٤٨ هـ ، مما ترتب عليه أسوأ النتائج بالنسبة للجيش الماررب .

وإلى جانب هذا كله ، فقد كان الشقاق والغيرة وتفرق الكلمة وعدم التعاون متوفرأ فى الجانب الصليبي . . يتضح ذلك فى النزاع الذى قام بين كونت أرتوا وكونت سالبورى . وفى العداء التقليدية بين الداوية والاسبتارية ، وفى الاختلاف بين رجال مقدمة الجيش المغير الذين عبروا بحر أشموم عن طريق المخاضة . . كل هذا سبب انقسامهم ، وكان له أكبر الأثر فى تخاذلهم وانكسارهم ؛ فى الوقت الذى كان فيه الجانب المصرى متحد الكلمة ، متفق الرأى كالبنيان المرصوص يشد بعضه أزر بعض .

وأخيراً فقد كان من حسن حظ مصر أن هيا لها القدر فى تلك الفترة ملكاً وملكة قاما بدور مجيد فى صد العدوان الصليبي عنها ، هما الصالح أبوب وزوجه شجرة الدر . فنحن لانسى موقف الملك الصالح عند ما علم بعزم الفرنج على قصد مصر ، وإعداده العدة فى دمياط للملاقاة ، ثم لانسى عزيمته القوية - رغم الملل والأوصاب التى به - عندما نزل بالمنصورة واستعد بها للملاقاة الأعدام ، فأبى إلا أن يساهم بنفسه فى قتالهم . وكان ينقل من مكان إلى آخر محمولا على محفة بعد أن أقعده المرض وأعجزه عن المشى . ولقد تمكنت شجرة الدر بعد موت زوجها



من إنقاذ مصر من الفرنج وإدارة أمور البلاد في فترة غيبة المعظم ، في حسن كيفا إلى أن قدم وتولى شئون السلطنة ، فأثبتت بذلك أنها امرأة حازمة مدبرة خليفة بالملك .

كل هذه الأسباب مجتمعة أدت إلى هزيمة الملك الفرنسى لويس التاسع ورجاله وحملته على ضفاف النيل في منتصف القرن السابع الهجرى - الثالث عشر الميلادى .

• • •

كان فشل حملة لويس التاسع على مصر لإذناً بتقلص ظل الاستعمار الصليبي في الشرق العربى في العصور الوسطى . بل كان بمثابة ضربة قاضية أصابت آمال المستعمرين في الصميم ، مما جعل اليأس يتمكن من نفوسهم . وقد قاموا بعد ذلك بمحاولات أخرى هزيلة ضد بلاد الشرق العربى والشمال الإفريقى ، يستهدفون من ورائها التوسع والسيطرة والاستعمار تحت ستار الدين ، ولكن محالاتهم هذه لم تكن بأحسن من حملة الفرنجيس ، إذ لاقت نفس المصير المشؤم .

وكان لدولة المماليك البحرية الفضل في توجيه اللطمة الأخيرة إلى حكم الفرنج المنهار بالساحل الشامى . فرى الظاهر بيبرس يغير على ممتلكاتهم ويستولى على أنطاكية عام ١٢٦٨م - ٦٦٧هـ . وواصل الملك المنصور سيف الدين قلاوون سياسة بيبرس من حيثشبه الهجمات المتكررة على باقى ممتلكاتهم ، والتي يتوجها استيلاؤه على طرابلس في سنة ١٢٨٩م - ٦٨٨هـ . وأخيراً في ١٨ مايو ١٢٩١م - ٦٩٠هـ استولى السلطان الأشرف خليل على عكا ، آخر معاقلهم الحصينة بالأراضى

المقدسة . ولم يبق لهم بعدئذ سوى أمكنة فردية ضعيفة طردهم المصريون منها في نفس السنة .

وبذلك تم القضاء نهائياً على البقية الباقية . من الاستعمار الفرنجى في الشرق العربى ، بعد حروب دامية دامت زهاء قرنين من الزمان بين قوى الحق والإيمان ، وقوى الباطل والعدوان ، انتهت بانتصار العروبة في مصر والشام وشمالي إفريقيا على أولئك الصليبيين الدخلاء ، حتى إنه لم تبق لهم بعد ذلك قائمة . وهكذا عادت الجرذان إلى جحورها تندب خيبة أملها ، وأسدل الستار على حروب التعصب والاستعمار في العصر الوسيط ليرتفع العصر الحديث عن مشاهد جديدة من الاستعمار سيكون النصر فيها اليوم كما كان بالأمس حليف العروبة بإذن الله .

## المراجع الرئيسية للحملة

### أولا - المراجع العربية

#### ١ - المخطوطات :

١ - ابن أبيك ( ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م ) أبو بكر بن عبد الله :  
كنز الدرر وجامع انغر - ٩ ج - دار الكتب المصرية -  
رقم ٤٦٤٣ تاريخ .

٢ - ابن الجوزى ( ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٧ م ) أبو المظفر  
شمس الدين يوسف :  
مرآة الزمان فى تاريخ الاعيان - ٨ ج - دار الكتب المصرية  
- رقم ٢١٨١ تاريخ .

٣ - ابن دقماق ( ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٧ م ) صارم الدين ابراهيم :  
نزهة الانام فى تاريخ الاسلام - دار الكتب المصرية - رقم  
١٧٤٠ تاريخ .

٤ - ابن منكلى ( ت ٧٧٨ هـ / ١٣٧٦ م ) محمد بن منكلى :  
كتاب الاحكام المملوكية والضوابط الناموسية فى فن القتال  
فى البحر - مكتبة كلية الآداب بجامعة اسكندرية - رقم ٩٠٠ .

٥ - ابن واصل ( ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م ) جمال الدين أبو عبد الله :  
مفرح الكروب فى اخبار بنى أيوب - ٢ ج - مكتبة جامعة  
اسكندرية - رقم ٦٤ مخطوط .

٦ - أبو شامة ( ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م ) عبد الرحمن بن اسماعيل :

الذيل على الروضتين فى أخبار الدولتين - ٢ ج - دار  
الكتب المصرية - رقم ٩٩٣ تاريخ \*

٧ - أبو المحاسن ( ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م ) جمال الدين يوسف  
ابن تغرى بردى :  
المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى - ٣ ج - دار الكتب  
المصرية - رقم ٣٥٥ تاريخ \*

٨ - الصفدى ( ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م ) صلاح الدين أبوالصفا  
خليل :  
الوافى بالوفيات - ٧ ج فى ١٧ مجلدا - دار الكتب المصرية  
- رقم ١٢١٩ تاريخ \*

٩ - العمرى ( ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م ) ابن فضل الله :  
مسالك الإبصار فى ممالك الأمصار - ج ٢٧ فى ٤ مجلدات  
- دار الكتب المصرية - رقم ٥٦٠ معارف عامة \*

١٠ - العيني ( ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م ) بدر الدين :  
عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان - ٢٣ ج فى ٦٩ مجلدا  
- دار الكتب المصرية - رقم ١٥٨٤ تاريخ \*

١١ - الفيومى ( ت ٧٧٠ هـ / ١٣٦٨ م ) أحمد بن محمد بن على :  
نثر الجمان فى تاريخ الأعيان - المجلد الثانى - دار الكتب  
المصرية - رقم ١٧٤٦ تاريخ \*

١٢ - الكتبى ( ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م ) محمد بن شاکر :  
عيون التواريخ - ج ٢٠ - دار الكتب المصرية - رقم  
١٩٤٧ تاريخ \*

١٣ - النويرى الكندى ( ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م ) شهاب الدين أحمد :

نهاية الأرب فى فنون الأدب - ٥٥ مجلدا - دار الكتب المصرية - رقم ٥٤٩ معارف عامة .

**ب - المراجع الطبوعة :**

١ - ابن خلدون ( ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م ) عبدالرحمن محمد :  
العبر وديوان المبتدأ والخبر - ٧ ج - القاهرة ١٢٨٤ م .

٢ - ابن خلكان ( ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م ) شمس الدين أبو العباس :  
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - ٢ ج - القاهرة ١٢٩٩ هـ .

٣ - ابن كثير ( ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٣ م ) عماد الدين أبو الفدا :  
البداية والنهاية فى التاريخ - ١٤ ج - مصر ١٣٥١ - ١٣٥٨ هـ .

٤ - ابن الوردى ( ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م ) أبو حفص زين الدين عمر :  
تنمية المختصر فى أخبار البشر - ٢ ج - القاهرة ١٢٨٥ هـ .

٥ - أبو الفداء ( ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م ) عماد الدين أبو الفداء اسماعيل :  
المختصر فى أخبار البشر - ٤ ج - استانة ١٢٨٦ هـ .

٦ - أبو الفرج الملقب ( ت ٦٨٥ هـ / ١٢٥٨ م ) غربغوريوس :  
أبو الفرج المعروف بابن العبرى :  
تاريخ مختصر الدول - بيروت ١٨٩٠ م .

٧ - أبو المحاسن ( ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م ) جال الدين يوسف  
ابن تغرى بردى :  
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة - ٩ ج - القاهرة  
١٣٤٨ - ١٣٦١ هـ .

٨ - جوزيف نسيم يوسف ( دكتور ) :  
لويس التاسع فى الشرق الأوسط - قضية فلسطين  
فى عصر الحروب الصليبية - القاهرة ( الطبعة الثانية ) ١٩٥٩ .

٩ - الذهبى ( ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م ) أبو عبد الله محمد بن أحمد :  
دول الاسلام - ٢ ج - الهند ١٣٣٧ هـ .

١٠ - السيوطى ( ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م ) عبد الرحمن بن أبى بكر :  
حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة - ٢ ج - القاهرة  
١٣٢٧ هـ .

١١ - عبد الفتاح عبادة ( ت ١٩٢٨ م ) :  
سفن الاسطول الاسلامى وأنواعها ومعداتنا فى الاسلام -  
القاهرة ١٩١٣ .

١٢ - المقرئى ( ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م ) تقى الدين أبو العباس  
أحمد :

أ - المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار - ٢ ج -  
القاهرة ١٢٧٠ هـ .

ب - السلوك لمعرفة دول الملوك - ج ١ ، ٢ - القاهرة  
١٩٣٤ - ١٩٤٢ م .

## ثانيا - المراجع الاجنبية

### أ - المراجع الاصلية :

1. Anonymous, Poème Anglo-Normand sur la Bataille de Mansourah. Cf. M.F. Michel, Hist. et chronique du très Chrétien roi St. Louis, Paris, 1881 (pp. 327-358).
2. Artois, Robert d', Lettre du Comte d'Artois sur la prise de Damiette. Cf. Mihaud, Croisades, t. iv. Paris, 1822 (pp. 610-611).
3. Beaumont, Jean de, Lettre à Geoffroi de la Chapelle sur la prise de Dmiette. Cf. A.C.L., t. I. Paris, 1881 (pp. 389-390).
4. Bouquet, M. (ed.) Recueil des Historiens des Gaules et de la France. 24 vols. Paris, 1738-1904.
5. Eracles, l'Estoire de Eracles Empercur et la Conquête de la terre d'outremer. Cf. R.H.C.-H.Occ., t. II, 24, partie, Paris, 1859 (pp. 1-481).
6. Joinville, Jean de, Histoire de Saint Louis (ed. Wailly) Paris, 1874.
7. Louis IX, King of France, Lettre de St. Louis sur sa captivité et sa délivrance, Cf. Michaud, Crois. t. IV, Paris, 1822 (pp. 619-631).
8. Melun, Guy de, Lettre à B. de Carn., sur la prise de Damiette Cf. Michaud, Crois, t. IV, Paris, 1822 (pp. 611-19).
9. Pario, M. Matthew Paris' English History from the year 1235 to 1273, 2 vols., London, 1852-53.

10. Rothelin, Continuation de Guillaume de Tyr dite du Manuscrit de Rothelin (1229-1261). Cf. R.H.C.—H. Occ., t. II, Paris, 1859. (pp. 489-639).
11. Sarrasin, J.P. Lettre à Nicolas Arrode sur la première croisade de Saint Louis. Ed. M.F. Michel, Hist. et chronique du très chrétien roi St. Louis, Paris, 1881 (pp. 253-313).

ب - المراجع العامة :

1. Arnold, T.V., The Preaching of Islam, London, 1935.
2. Davis, E.J., The Invasion of Egypt in A.D. 1249 (A.H. 647) by Louis IX of France, London, 1897.
3. Grousset, R., Histoire des Croisades, 3 vols. Paris 1948.
4. Oman, C., A History of the Art of War in the Middle Ages. 2 vols., London, 1924.
5. Réshad M., Note sur la prison de Louis IX à Mansourah, Le Caire, 1887.
6. Runciman, S. A History of the Crusades, 3 vols. Cambridge, 1954-1955.



## الفهرس

صفحة	
٣	مقدمة المؤلف .....
٥	جيوش العدوان تبجر من فرنسا .....
٨	مصر تستعد للملاقاة المعتدين .....
١١	الفرنسيون في دمياط .....
٢٣	سورية الشقيقة .....
٢٩	شجرة الدر في الميدان .....
٣٣	الفرنسيون في الطريق الى المنصورة .....
٣٥	الجهاد المقدس .....
٣٧	الفرنسيون أمام بحر أشموم .....
٤٨	موقعة المنصورة الأولى .....
٥٤	الشعب في المعركة .....
٦١	موقعة يوم الجمعة .....
٦٧	الوباء يتغشى في المعسكر الفرنسي .....
٦٩	توران شاه يصل الى المنصورة .....
٧٣	مذبحة فارسكور .....
٧٨	لويس يقع في الأسر .....
٨٥	حديث ذو شجون .....
٨٧	دمشق تحتفل بالنصر .....
٨٩	نهاية طاغية .....
٩٤	مفاوضات الصلح .....
٩٦	المصريون يستردون دمياط .....
٩٨	ماتم وأفراح .....
١٠٢	دراسة تحليلية في أسباب فشل العدوان .....
١٢١	المراجع الرئيسية للحملة .....

طبع بمطبعة العالم العربي  
٢٣ شارع الظاهر بالقاهرة  
تليفون ٤٤٧٠٦



رفع  
مكتبة تاريخ وآثار دولة المماليك

02  
3



0579498



مؤسسة المطبوعات الحديثة

شارع ماسبيرو رقم ٣ بالقاهرة  
الجمهورية العربية المتحدة

الثنى ١٥ فرشا